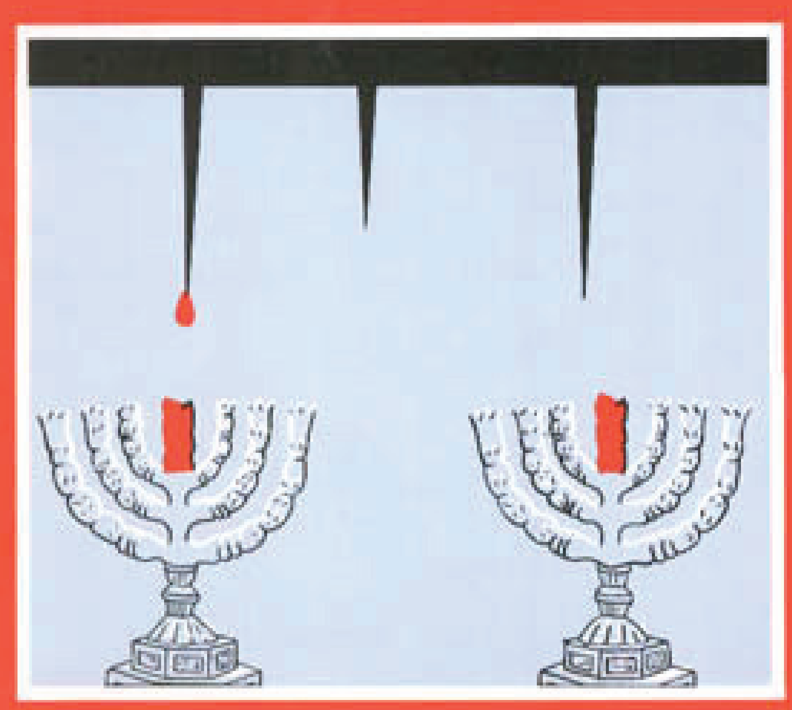
نجيب الكيلاني

دم لفطير صهيون



دار النفائس

نجيب الكيلاني

دم لفطير صهيون

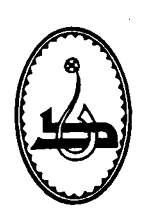
دار النفائس

الطبعة الخامسة

١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

© دار النفائس

بيروت : ص ب ٦٣٤٧ - هاتف: ٨١٠١٩٤ - ٢٣٢٩٣٣ - برقياً: دانفايسكو



دَم لفطير صَهيُون

بسم الله الرحمن الرحيم

شخصيات الرواية

١ — شريف باشا : والي دمشق من قِبَل محمد علي .

٢ — البادري توما : « Padre Tomaso da Calangiano »
قسيس إيطالي الأصل ، فرنسي الجنسية يعيش في دمشق منذ أكثر من ثلاثين عاماً .

٣ — ابراهيم عمار : خادم البادري توما .

٤ — سانتي : صيدلي بمستشفى دمشق العام ، وصديق الأب توما .

٥ — داود هراري : تاجر يهودي كبير معروف بحسن السيرة يطلقون عليه « اليهودي الصالح » تخطى الخامسة والخمسين من العمر .

٦ — كاميليا : زوجة داود هراري ، في الثلاثين من عمرها .

٧ — مراد الفتال : خادم في بيت داود هراري ويريد الزواج من استير .

٨ — استير : خادمة في بيت داود هراري وتحب مراد .

٩ ـ الحاخام موسى أبوالعافية) من رجـــال الدين اليهودي
١٠ـ الحاخام موسى سلانيكلي (المشهورين ·
١١ـ الحاخام العنتابي : « ربي » ديانة اليهود بالشام .
(منصب رئاسي في الديانة اليهودية)
١٢ـ سليمان الحلاق : حلاق يهودي بجوار كنيس اليهود
١٣ـ يوسف هراري
١٤ـ اسحاق هراري } إخوة داود
١٥ـ هارون هراري
١٦ـ يوسف لينيادو يهودي صديق لأسرة هراري
١٧ـ كراميو Cremieux
١٨ـ مويز مونتيفيوري Moses Montefore
} من كبار اليهود في فرنسا وأوروبا ومندوبان عن جمعية الاتحـــاد الاسرائيلي .

بالإضافة إلى شخصيات ثانوية أخرى (شرطة ـ محققون ـ قناصل دول .. الخ)

مكان الرواية وزمنها

المكان : دمشق .

الزمن : الفترة ما بين فبراير (شباط) عام ١٨٤٠ م حتى سبتمبر (ايلول) من نفس العام،وكانت دمشق في ذلك الوقت تحت حكم محمد علي باشا والي مصر .

١

نحن في دمشق في أوائل عـــام ١٨٤٠ ، بعد أن احتلت قـوات محمد علي باشا الشام بقيـادة ولده ابراهيم باشا ، ذلك القائد المحنك ، وها هي دمشق تخضع للحكم المصري ، وواليها من قِبَل الجيش المنتصر هو الرجل اليقظ شريف باشا . وليس في دمشق كلها من لا يعرف تلك الحارة الشهيرة المميزة ، حارة اليهود . فإذا سرت في هذه الحارة ، وقعت عيناك على رجال اليهود ونسائهم وأطفالهم ، وعلى بيوتهم المتلاصقة المزدوجة : الأبواب تبدو صغيرة قليلة الارتفاع ، لا يكاد المرء يدخلها إلا منحنياً ، ولا تتسع لأكثر من واحد ، وكأنها أبواب الدهاليز الغامضة ، والبـاب يقودك إلى ممر ملتو كالأفعى ، يفضي إلى باحة واسعة تنتثر فيها الأغنـام والطيور والأرانب ، وبعض الحشائش ، وقد تجد أشجاراً مثمرة كالتين والعنب ، ومن آن لآخر ترى حانوتـاً لبيع الخبز والمأكولات ، وآخر يتلألأ فيه بريـق الذهب والجواهر ، وثالثاً يكتظ بـأنواع الأقمشة والمنسوجات ذات الألوان الزاهية ، وقد تجد بالقرب منـه

خاناً كبيراً لبيع الأخشاب ، وهناك قرب النهاية تجد « كنيس الإفرنج » الذي يتردد عليه اليهود لتأدية شعائر دينهم في حرية تامة ، وإلى جوار الكنيس يقبع محل « سليمان الحلاق » الذي يتردد عليه كثير من الزبائن اليهود وغير اليهود ، وسليمان زرب اللسان ، حلو النكتة ، يقلد الأوربيين في طريقة قص الشعر ، وتنظيم الخصلات ، وتنميق السوالف ، وسليمان مشهور أيضاً بعملية « فصد الدم » بارع في تأديتها ، فكثيراً ما تراه يغلق دكانه ويحمل حقيبته ، ويذهب إلى أحد البيوت لإجراء فصد الدم لبعض المرضى ، وسليمان يهمه بالدرجة الأولى ألا يخرج من أي بيت خاوي الوفاض ، ومن ثم تراه يؤكد لكل مريض أن فصد الدم ضروري له ، حتى ولو كان هذا المريض مصاباً بفقر الدم والهزال ، أو كان يعاني من إسهال حاد . إن سليمان يحب المال ويحب منظر الدماء أيضاً ، والفصد يحقق له الهدفين معاً ، وسليمان سمح الوجه ، باسم دائماً ، لا تكاد تعبيرات وجهه تشف عما يعتمل في داخله .

وفي حارة اليهود بدمشق تقيم أسرة « هراري » ذات الثراء الفاحش والتجارات الواسعة والصيت الذائع . إن منزل « داود هراري » يعرفه الجميع ، فهو بناء جديد يوحي بالعظمة والغنى والنفوذ ، نوافذه الزجاجية ذات الستائر الحريرية تجذب اليه الأنظار ، وطلاؤه الناصع البياض يوحي بالإعجاب والمتعة ، حتى النسوة اللاتي تظهر وجوههن من النوافذ أو فرجات

الأبواب يتمتعن بجمال فائق ، وأصواتهن الرخوة الناعمة تثير خيال المراهقين ، وتحرك الدماء بعنف في عروق الرجال . ومن أشهر الرجال الذين يقيمون في حارة اليهود الحاخام «موسى ابو العافية » والحاخام « موسى سلانيكلي » إنهما ، كثيراً ما يبدوان في الحارة وهما ذاهبان إلى الكنيس أو عائدان منه ، يحوطهما الوقار والهدوء والغموض ، وهي من لزوميات رجل الدين اليهودي ...

وفي حارة اليهود تبدو أشياء مسلية ، بل ومضحكة في بعض الأحيان . إن عشرات من الشبان « الشوام » وبعض عساكر محمد علي ، يمضون في حارة اليهود يوزعون نظراتهم يميناً وشمالاً ، ويحاصرون النسوة السائرات في الطريق بعيونهم النهمة الجائعة ، ويطلقون كلمات الغزل الساذجة بصوت خفيض في أغلب الأحيان ، ونادراً ما يقولونها بصوت مرتفع ، والخجل يوشي وجوههم التي تفيض حيوية ، فالشائع عندهم أن النساء اليهوديات لا يكترثن كثيراً بالآداب المرعية ، ولا مانع لديهن من أن تنصب في آذانهن كلمات الإطراء والثناء على جمالهن ، وعديد من الأقاصيص والحكايات يرويها المراهقون عنهن ، ويبالغون في تفاصيلها ، ولعل مما يقوي هذه الظنون حب اليهود للمال ، ورغبتهم في الحصول عليه من أي طريق ، فلا عجب أن تقع العين على أحد الشبان وهو يعبث بجيوبه ويحركها حتى يصدر عنها صوت ارتطام القروش ببعضها ، أو رنين

القطع الذهبيـة ، ذات الصدى الساحر ، وعلى الرغم من أن هذه المظاهر قد تؤذي مشاعر الرجال من اليهود الا أنهم يغضون الطرف عنها ، ويتجاهلونها تماماً، أملاً في أن يميل بعض هؤلاء على المحلات التجارية ، ويشتري بعض أغراضه ، ومن آن لآخر تسمع أحد تجار اليهود يدلل على بضاعته قائلاً :

« تفضلوا يا شباب .. عندنا عطور فاخرة .. »

« هنا اعظم الثياب الحريرية .. »

« تفضلوا .. مجوهرات .. وخواتم ذهبية وفضية .. »

وغيرها من الأشياء التي تصلح كهدايا .

وقد يتقابل أحد الشبان صدفة مع إحدى اليهوديات وهي تشتري بعض ما تحتاج إليه من بضائع ، فترمقه بنظرة عابرة، فتغذي تلك النظرة خياله بآلاف الأمنيات ، وتشعل في كيانه الرغبات الجامحة ، فيمضي وراءها مسلوب الإرادة حتى يراها وهي تختفي وراء أحد الأبواب ، ويبقى هو رائحاً غادياً يحلم باللقاء العامر بكل ألوان الملذات ، ويظل هائماً في أحلامه حتى يحط المساء ، وتنبعث أضواء المصابيح الهزيلة ...

٢

وليس في مدينة دمشق كلها من لا يعرف الأب « توما »،

أو البادري توما كما يسمونه ، وهـو قسيس من سردينيا ، إيطالي الأصل ، لكنه يتمتع بالجنسية الفرنسية ويعيش في دمشق منذ أكثرمن ثلاثين عاماً . لقد تخطى آنذاك الخامسة والخمسين من عمره ، ومـع ذلك فإن وجهه الأشقر ، يفيض بالحيويـة والنشاط ، وعينيه الصافيتين تنسكب منهما الطيبة والرضى واليقين ، ولحيته الشقراء التي تناثرت فيها الشعيرات البيضاء تقطر سماحة وأمناً وثقة ، الرجال يبشون لمقدمـه ، ويجلونه أشد الاجـلال ، والنساء ترمقنه في احترام بالغ ، والأطفال يمتزج حبهم له بشيء قليل من الخوف ، لأنه يعطيهم دائماً الطعم الواقي ضد الجـدري ، حتى اليهود برغم عدائهم التقليدي للمسيحيين لا يشذون عن هذه القاعدة ، ويبدون كثيراً من التقدير والمحبة للأب توما، بل إن اليهودي المعروف التاجر الثري « داود هراري » يُعد من أصدق أصدقاء الأب توما ، وأخلص خلصائه ، وكثيراً مـا يراهما الناس جالسين معاً ، يتناقشان في أمور الدين والدنيا، ويرشفان أقداح القهوة التركية، ويتبادلان الملَح والطرائف في مودة لا مثيل لها ..

ويسكن « الأب توما » ـ مع خادمه الوحيد إبراهيم عمار ـ في دير صغير، لا ثالث لهما، حياتهما هادئة بسيطة لا متاعب فيها ولا منغصات. و« الأب توما » وقته موزع بين العبادة والقراءة ومعالجة المرضى، ولديه في الدير مكتبة عامرة بكتب اللاهوت والتاريخ والطب واللغة ، وهو حريص على مداومة النظر في

كتب الطب ، القديم منها والحديث ، فتجد لديه كتب ابن سينا وابن النفيس والرازي المترجمة عن العربية الى اللاتينية والانجليزية والايطالية ،كما تجد المؤلفات الحديثة في علم التشريح والحميات والاقربازين والفيزياء وغيرها ، وفي مقدور الأب توما أن يعطي الناس الطعم الواقي ضد الجدري لان هذا المرض كان كثير الانتشار في تلك الايام ، وكان يأتي على هيئة موجات وبائية عنيفة تكتسح المدن والقرى وتخلف وراءها الكثير من الشقاء والاحزان والعاهات ، بل كثيراً ما كانت تترك جيشاً بأكمله مجموعةً متناثرةً من الجثث والعفن والبلاء.. والاب توما يستطيع أن يمارس بعض العمليات الجراحية الصغيرة كأن يشق خرّاجاً أو يجبر كسراً، أو يخيط جرحاً، كما كان يداوي الكثير من الامراض الباطنية باستعمال خلاصة الاوراق والنباتات التي يغليها فوق النار ، وقد يقطر بعض المطهرات في عيون المرمدين ، أو يضع بعض المراهم على رؤوس الاطفال المصابين بالقراع ، وتراه في الصباح الباكر يستعد لاقامة الصلاة في الدير ، فيفد إليه عديد من الناس ، فيلقي مواعظه ، ويؤدي الشعائر ، وكان له الكثير من الاصدقاء المرموقين ، ذوي المراكز والكفايات العلمية والدينية ، ومن أهمهم الخواجا « سانتي » الذي يعمل صيدلياً بالمستشفى العام بدمشق،وكثيراً ما كان « سانتي » يستعير الكتب من « الاب توما » ، ويقضي معه بعض السهرات الليلية ، يتدارسون فيها أمور العلم والدين والسياسة . قال له سانتي ذات مساء :

ـ « لماذا لم تتزوج ؟ »

ابتسم الاب توما وقال :

ـ « من قال ذلك ؟؟ لقد تزوجت .. »

نظر اليه سانتي باهتمام وقال :

ـ « عهدتك تتحرى الصدق دائماً .. »

هز الأب توما رأسه وقال في شيء من الشرود :

ـ « لقد تزوجت الحقيقة »

انفجر سانتي ضاحكاً وقال في معاتبة :

ـ « المرأة أقوى حقيقة في حياتنا »

ـ « الانسان ليس الحقيقة كلها بل هو جزء منها ..
يا صديقي العزيز سانتي .. لقد عشت لها .. للحقيقة »

همس سانتي وقد بدا الخجل على عينيه :

ـ « لكن المرأة حقيقة تبعث الدفء في القلوب والأرواح والأجساد .. »

ـ « الحقيقة الكبرى دفئها أبدي خالد »

ونظر الأب توما الى السماء الصافية المرصعة بالنجوم المتألقة وكان الجو بارداً وتمتم :

ـ « طوبى لكل الأتقياء »

تنهد سانتي وهتف :

ـ « إنه ضرب فريد من البطولة »

ـ « ماذا تقصد ؟؟ »

ـ « اغفر لي يا أبتاه .. أنا أصلي وأصوم .. لكن عطر النساء يدير رأسي ، ولهذا تزوجت ولا أستطيع أن أتصور رجلاً طبيعياً بدون امرأة » .

قال توما في يقين ثابت :

ـ « انه حرمان بإرادتي .. لم يلزمني به أحد وأنا لا ألزم به أحداً .. فليتزوج الرجال .. وليأت إلى الدنيا أطفال كالزهور .. لكن لا بد أن يكون هناك طائفة يتفرغون لمجد الله ، ويعشقون الحقيقة .. ويهبون حياتهم كاملة لها .. »

وشرب الأب توما جرعة من القهوة واستطرد :

ـ «أنا في قمة السعادة .. حينما أتأمل الوجود .. وأفكر في عجائب مخلوقات الله .. وأندمج في هذا الكون .. وأتذكر « السيد العظيم » أهيم في عالم وردي رائع .. وأنتشى نشوة كبرى » .

ثم التفت إلى سانتي قائلاً :

ـ « الست معي في أن الملذات تختلف ؟؟ هناك من يجد

لذتــه في الطعام ، وآخر يجدها في المــال وجمعه ، وثالث لا يستشعرها إلا في أحضــان النساء .. وهكذا .. وأنا العاشق للكون وما فيه ، أنا أنعم في رحاب الحقيقة الابدية أشعر أن سعادتي لا بداية لهــا ولا نهاية .. وُجِدَتْ قبل أن أولد .. وستمتد .. وتتخطى سنوات العمر .. وترافقني في الآخرة .. أتعي جيداً ما أقول يا سانتي ؟؟ »

هز سانتي كتفيه وقال :

ـ « أقر بعجزي .. »

ـ « إن لك أجنحة ، ولكنك تأبى أن تجربها .. »

ـ « أية اجنحة ..؟ »

ـ « الروح تستطيـع ان تخترق بها الحواجز والحجب .. »

ـ « أنا ثقيل .. ثقيل .. يا أبتاه .. »

ربت (توما) على رأسه في حنــان صادق وعيناه مبللتان بالدموع وتمتم في رقة :

ـ « فليحرسك الله .. وليبارك مسماك .. »

وسادت فترة صمت قال الاب توما بعدها :

ـ « الرحلة طويلة شاقة لكنها ممتعة .. مــا زلت أذكر الايام والليالي .. جزيرة سأردينيا .. ونحن أطفال.. الشاطىء

الجميل ... الصغيرات اللطيفات يلعبن في المياه النقية كالاوزات ويتردد صدى ضحكاتهن البريئة في الآفاق..وابتسامات الفتيات الجميلات في ظلال الخمائل .. كنا نأكل في نهم .. ونشرب .. ونلهو .. ونعب الحياة عبا .. كان كل شيء رائعاً وجميلاً .. ودخلت مدرسة اللاهوت .. وتفتحت عيناي على السطور الاولى من كتاب الحقيقة .. والكتب لا تضم كل شيء ... هناك أشياء كثيرة نتعلمها من التجربة وأشياء أخرى تنبثق من الذات ، وينبض بها القلب .. وتشدو بها الروح ، قد لا نستطيع التعبير عن هذه الاشياء مع أنها أروع ما في الحياة والوجود .. لكنها موجودة .. وأشعر بها جيداً .. هي زادي وحياتي .. لذا تراني سعيداً وأشعر أكثر بالسعادة حينما أراني وقد اجتزت تلك المسافات الشاسعة في عالم النفس الرحب الكبير .. آه يا سانتي .. أنت لا تشعر بما يعمر قلبي من مجد وروعة » .

٣

لا يستطيع أحدٌ أن ينكر ما « لداود هراري » من بطش ونفوذ وشخصية مرموقة ، هو بمقاييس رجال الدين اليهودي من المتدينين الاوائل الذين يحافظون على الصلاة ، ويهتمون بالشعائر ، ويظهرون احتراماً وتقديراً بالغين نحو الحاخامات ،

وكثيراً ما أجرى الترميمات اللازمة للمعبد اليهودي أو أعاد صباغته بالألوان الزاهية من عام لآخر ، وهو بمقاييس رجال التجارة مراوغ كبير وذو حاسة تجارية لا تخيب، كما لو كان له قرنا استشعار يعرف بهما ما سوف يجد من أزمات في بعض أنواع البضائع ، فتراه يخزن بعض المواد ، أو يجمعها من التجار ثم يخفيها تماماً ، وعندما تستحكم الأزمة ، وتشتد الحاجة اليها ، يظهرها بمقدار ، ويوزعها في السوق السوداء ، فيبيعها بأغلى الأسعار ، وهو بمقاييس رجال النفوذ صاحب مركز قوي تربطه برجال القنصليات روابط وثيقة ، وقريب من الحكام ، ويستطيع الحصول على كل ما يستعصي عليه نواله بماله ، وهو رجل أسرة يقبض على زمام الأمور بيد حديدية ، فلا تستطيع زوجه الجميلة « كاميليا » ولا أولاده أو خدمه ، أن يحيدوا عن السياسة التي يرسمها قيد أنملة ، فهو على ما يظهر رجل ناجح موهوب ينسق حياته العامة والخاصة تنسيقاً يكاد يكون آلياً ، لكن أحداً لم يكن يعلم أن زوجه « كاميليا » كثيراً ما تضيق بهذا النظام الآلي الصارم ، بل وتشمئز منه ، لكنها في نفس الوقت كانت مهيضة الجناح ، مستسلمة للأمر الواقع ، لا تستطيع أن تغير من الأمر شيئاً ، وكانت تكتم في نفسها تمردها وحنقها ، وكانت صغيرة السن بالنسبة له ، فهو فوق الخامسة والخمسين ، أما هي فلم تكن قد بلغت الثلاثين من عمرها ، وعندما كان داود يدعو علية القوم الى بيته كانت زوجه كاميليا تجلس وسط النسوة متألقة كالزهرة الندية ،

عيناها تنبضان بسحر جذاب فاتك ، وعليها مسحة من حزن لا يكاد يبدو ، يزيد رونقها بهـاء وفتنة ، وكان كل واحد في الحضور يتمنى أن يراقصهـا أو يجاذبها أطراف الأحاديث ، لكنها على مـا يبدو كانت خجولاً لم تتعود هذه الجرأة وذلك الاختلاط برغم الحفلات المتكررة . ولم يكن داود ليسمح لها بـأن تغادر البيت وحدها ، ولا تذهب إلى بيت أبيهـا أو جيرانها أو صديقاتها إلا في صحبته ، وكان ينبه عليها قبل كل حفلة أو مأدبة بألا تسمح لأحد بمراقصتها أو بالاطالة في الحديث معها ، مهما كانت شخصيته ، حتى ولو كان سفيراً من السفراء ، أو قنصلاً من القناصل ، والغريب أنهـا بالرغم من حنقها عليه كانت تخافه ، وتعمل له ألف حساب ، كان ظاهرها في الواقع يتسم بالطاعة والرضى والحب لزوجها ، وكانت اعماقها تكتظ بكراهية زائدة له ولأسلوبه في الحيـاة ، لكن السر الخطير الذي لم يكن يعلمه أحد هو صلتها المريبة بخادم الأسرة «مراد الفتال » .. ومراد هو محل ثقـة زوجها ويعرف الكثير عن أسرار سيده وصفقاته المريبة ، بل يعرف أشياء قد لا تعرفها كاميليا نفسها ..

إن مراد هو خادمه الأمين الذي يثق بـه ثقة مطلقة ، والحق يقال فإن مراد كان مخلصاً لسيده داود ، ملتزماً بالآداب المرعية ، وكان متعلقاً بفتاة يهودية تقوم هي الأخرى بالخدمة في بيت داود هراري ، وكان كل امله ان يتزوجهـا . اسمها

« استير » لم تتخط التـــاسعة عشرة ، وهو يكبرها بخمس سنوات ، ويبدو ان سيدتها قد أدركت العلاقة الوليدة بينها وبين زميلها في الخدمة مراد ، فاشتعل قلبها بالحقد عليهـا ، وكثيراً ما همت بطردها لكنها وقفت عاجزة أمام هذه العقدة، لأن طردها ربما يؤدي إلى فرار مراد الفتال ، وكاميليا لا تريد ذلك ولا تطيقه ، بل لعل تهور كاميليا في مثل هذه الحالة قد يكشف مـا خفي ، وينجلي عن فضيحة كبرى ، ولذا كانت « كاميليا » مضطرة لأن تخفض من حدة غضبها وغيرتهـــا ، وتسوس الامور بطريقة عاقلة، وتتحمل وجود استير،ويكفي أن مراد الفتال طوع بنانها ..

قال داود :

ـ « لسوف أرحل اليوم إلى بيروت يا كاميليا » .

وعلى الرغم من أنهـا كثيراً ما تطرب لسفرياته ، وتتمنى أن تتكرر دائماً ، إلا أنها هتفت في دهشة :

ـ « انك كثير الأسفار .. وتتركني وحـدي دائماً أعاني الوحدة والعذاب .. »

نظر إلى وجهها الحزين ، وعينيها الدامعتين ، وتمـتم : « أتحبينني لهذه الدرجة ؟؟ »

بان الغضب على ملامحها ، ونفرت منه في احتجاج،وأعطته ظهرها وهي تقول :

ـ « يا لك من ظالم !! ألا تعرف حبي بعد هذه السنوات الطوال من الزواج ؟؟ ثلاث عشرة سنة يا داود، إنها عمر .. »
كانت في قرارة نفسها تشعر أن أيامهـا معه تشبه ايام السجن برهبته وعذابه ومله .. تنهد في حسرة وتمتم :

ـ « رجل في الخامسة والخمسين وأنت في عز شبابك .. »
إلتفتت إليه ، وشبكت يدها خلف عنقه كطفلة تتعلق بأبيها وقالت وبراءة الأطفال في عينيها الجميلتين :

ـ « إن مجرد وجودك إلى جواري يبهج قلبي .. علاقتنا فوق الماديات والمطالب الجسدية .. »

هذه الكلمات أزعجته ، إنه يشم فيها معنى العزاء والتماس المعاذير التافهة لضعف قوته ، وانحسار ظل شبابه ... شبابه الذي يعاني آلام الغروب ، ويرتجف من هول الشتاء .. شتاء العمر القاسي الذي لا يرحم.. وتمتمت « أنت لم تزل قوياً..»

هي تكذب وهو يعلم ذلك جيداً ، وكان حريصاً على أن تنتهي هذه المناقشة بأسرع ما يمكن،لذا قال وابتسامة صفراء ترتسم على فمه :

ـ « لا تحزني يا حبيبتي .. لن أبقى في بيروت أكثر من أسبوع .. ولسوف أعـــود بعدها أكثر صحة وعافية .. »
وجفف عرق جبينه قائلاً « هناك في بيروت نوع من البذور يقولون أن طحنه ومزجه باللبن وشربه في الصباح قبل الفطور

يقوي الهمة ، ويعيد الشباب .. »

تضرجت وجنتاها البضتان بالخجل وتمتمت :

ـ « كل ما اريده ان تأتي إليّ سليماً معافى .. اريدك أنت وكفى .. »

وشرد بضع لحظات وقال :

ـ « قال لي الحاخام « موسى أبو العافية » أنه لن يرد إليّ قوتي ويرضي ربي ، إلا الفطير المقدس فطير عيد الفصح .. »

ارتجفت مفاصلها ، وشحب وجهها ، وتشبثت به قائلة :

ـ « بالله عليك لا تطرق هذا الحديث.. إنني أخاف .. »

قال في إصرار وعنف :

ـ « تلك أوامر « التلمود » .. ودم المسيحي الممزوج بالدقيق له فعل السحر يا امرأة .. »

ثم عاد يقول « ويحي !! ماذا قلت ؟؟ ما كان يجب ان أتفوه بمثل هذا الكلام .. إنه خطير .. خطير للغاية .. »

قالت كاميليا متوسلة « وانا لا اريد ان اسمعه منك .. »

٤

ليلك يا دمشق تسكره الظلمات ، وآلامك يا دمشق

ترقبها النجوم الساهرة في طـول السماء وعرضها ، وذكريات الأمس يا مدينة التاريخ العظيم تفيض بالدماء والجراح والمعارك التي لم يزل يتردد صداهـــا عبر السنين ، والعسس يا دمشق يجوبون طرقاتك الخالية المقفرة في صمت ويقظة ، مخافة ان ترتفع رأس باعتراض ، أو تنطلق صيحـــة تطالب بالحرية ، او يثب فارس بمدفعه يبدد السكون؟ ويحيي الموات ، ويشعل الحرب من جديد ، الغزو والامتيازات الأجنبية يثقلان على كاهلك ، ويحجبان وجهك المشرق العريق ويمرغانه في التراب ، لكنك لم تستسلمي للفناء ولم ترضخي للذل .. لانك يا دمشق من قديم قلعة الاحرار والايمان..ومنارة الاسلام والبطولات..

دمشق نائمة في الظاهر ، لكن عيونها مسهدة ، والدموع تنسكب على الخدود ، والمسجد الأموي قد أوى اليـه بعض العبـاد يضرعون الى الله ، ويطيلون السجود والركوع ، ووالي دمشق من قِبَل محمد علي باشا (شريف باشا) ينـام في قلعته مطمئن البـــال ، هادىء النفس ، بعد ان انكسرت حدة المقاومة وهُزمت الجيوش المحلية والتركية ، وتمزقت السكينة ، واندحر الامن ، لكن حارة اليهود لها شأن آخر ، لا يضيرهم ان يأتي حاكم ،أو أن يذهب حاكم ، فكل حاكم يأتي يدينون له بالطاعة والولاء ،ويبذلون له الذهب والنساء ،ويتطوعون بإفشاء اسرار المناضلين ،ويشون بأعدائهم في الدين ،او منافسيهم في التجارة ، او مناوئيهم في الحرب الخفية .. الدس...السموم..الوقيعة هي

أسلحتهم التي لم تتغير ولم تتبدل على مدار السنين ..

وبيت «داود هراري» يقبع تحت الظلمات ببنائه الشاهق. الكل نائم .. الخدم ينكمشون من شدة البرد في حجرة ضيقة للرجال ، واخرى للنساء ، واطفال « هراري » يغطون في سبات عميق ، لكن هناك حيّة تسعى .. ها هي « كاميليا » تتسلل الى حجرة في آخر الدهليز الأرضي ، لا يقربها أحد .. وللدهليز باب صغير في الامكان اغلاقه باحكام ، وفي نهاية الدهليز حجرة صغيرة قذرة تمتلىء بالأتربة وبعض المخطوطات القديمة والكتب المقدسة ، وغيرها من طبعات التلمود الصفراء الرثة وبعض الاغراض الاخرى ..

كانت كاميليا تلبس ثوباً شفافاً يبرز مفاتن جسدها ، وفي يدها شمعة يتحرك لهبها المرتجف فيرسم على الحيطان ظلالاً تبدو كالأشباح الخرافية ، واخذت كاميليا تنظر يمنة ويسرة ، وتنتقل في قلق من مكان الى مكان ، وأخيراً وضعت الشمعة على رف صغير في ركن من اركان الحجرة ، الانتظار يرهق اعصابها ، ويكاد يحطمها ، ترى لماذا لم يأت ؟؟ اقسمت بينها وبين نفسها ان تدمره .. تسحقه .. تقضي عليه قضاء مبرماً اذا اخلف وعده ولم يحضر .. اللحظات القصار تبدو كدهر طويل .. وهي تريد ان تفعل شيئاً كي تبدد سأمها وضيقها وتهدىء من خفقات قلبها ، ونظرت الى جوارها فوجدت كتاباً قديماً يغطيه الغبار فتناولته واخذت تقرأ : « الطور يورد » .

هو كتاب ألفه العالم الرباني يعقوب ، وهو احد ائمة اليهود وآراؤه معتبرة في المسائل الدينية ، وجـاء في البند ١٥٨ انه «محرم على اليهودي ان ينجي احداً من بقية الامم من البئر التي يكون وقع فيهـا ، وعلى الطبيب اليهودي ألا يداوي اميـاً (غير اسرائيلي) مطلقـاً ولو بالاجرة إلا اذا اراد ضرره او الانتفاع بماله ، فاذا كان مبتدئاً في هذا الفن ، فليتعلم بمداواة باقي الامم ، ويجوز اجراء المعالجة مجاناً في هذه الحالة .. »

تضايقت كاميليا من هـــذه الكلمات ، فقذفت بالكتاب بعيداً وعادت تنظر الى باب الدهليز الضيق المظلم ، وتحاول جاهدة ان تتسمع وقع خطوات الرجل القادم ، لكن احداً لم يأت .. لقد مضى على الموعد اكثر من نصف ساعة ، مـا معنى ذلك ؟ إنها تكاد تجن .. لا يمكن ان يخدعها هكذا .. لو فعل ذلك لذبحته ، هي على استعداد ان ترتكب اية حماقة من اجل تحقيق رغباتها الآثمة ، واشباع ظمئها وجوعهـــا . وبطريقة لا شعورية تناولت مخطوطاً آخر مكتوباً بخط اليد الاسود ، واخذت تقرأ دون ان تدرك معنى لما تقرأ :

« لا تعتبر اليمين التي يقسم بها اليهودي في معاملاته مـع باقي الشعوب يميناً ، لانه كأنما أقسم لحيوان ، والقسم لحيوان لا يُعد يميناً .. فإذا اضطر يهودي أن يحلف لمسيحي فله أن يعتبر ذلك الحلف كلا شيء .. على أنه لا معنى للنزاع القائم على الاموال بين اليهودي وغير اليهودي . إن اموال المسيحي

ودمه ملك لليهودي وله التصرف المطلق فيها ، وله الحق طبقاً لقواعد التلمود في استرجاع تلك الاموال » .

لم تشعر كاميليا لهذه الكلمات بمذاق ، او معنى،على الرغم من معرفتها بأنها من قواعد الديانة اليهودية التي تجلها وتحترمها، بل وتؤمن بها اعمق الإيمان .. وعـــادت تنظر من جديد الى الدهليز المظلم والبـــاب الصغير ، واشباح الظلال تتراقص على الحيطان الجرباء الرطبة ذات الرائحة المميزة..انها تكاد تختنق: «هذا الملعون لماذا لم يأت؟ لئن رأته عيناي لأنشب اظافري في جسده وفي عينيه لا :. لا .. إن عيونــه جميلة تنضح بالحيوية والرجولة .. وليست ذابلة ميتة كعيون زوجي .. » تنهدت في تعاسة .. واخذت تبكي وتضرب يديهـا ورأسها في سرير قديم لكنها سرعان ما استعادت هدؤها وجففت دموعها .. واختطفت كتاباً ثالثـــاً صغيراً واخذت تقرأ فيه .. لكن الـكلمات شدتها هذه المرة .. « مـــاذا ارى يالهي ؟؟ » فلتقرأ بصوت مرتفع :

وقال الربي كرونر : « إن التلمود يصرح للانسان اليهودي بأن يسلم نفسه للشهوات اذا لم يمكنه ان يقاومهـا ، ولكنه يلزم ان يفعل ذلك سراً لعدم الضرر بالديانــة ، ولقد ذكر في التلمود عن كثير من الحاخامات مثــل الربي « رابي » والربي « نحمان » انهم كانوا ينادون في المدن التي يدخلونها عما اذا كان يوجد فيها امرأة تريد ان تسلم نفسها لهم عدة ايام .. وجـاء

في التلمود ايضاً عن الربي « اليعازر » انه فتك بكل نساء الدنيا ، وانه سمع مرة ان واحدة تطلب صندوقاً ملآناً بالذهب كي تسلم نفسها فحمل الصندوق وعبر سبعة شلالات حتى وصل لها .. وجاء في التلمود ان هذا الحاخام لما توفي صرخ الله في السماء قائلاً تحصّل الربي « اليعازر » على الحياة الأبدية .. »

وعادت كاميليا تقرأ هذه الكلمات المثيرة مرة اخرى باعجاب .

كيف تكون هذه الكلمات في الكتب الاسرائيلية المقدسة دون ان تدري عنها شيئاً ؟؟ إن زوجها لا يذكر لها شيئاً عن ذلك ولا يخبرها الا عن الفطير المقدس ...

وتوقفت عن التفكير حينما سمعت صرير الباب ..

ها قد اتى مراد الفتال ...

ـ « ايها الملعون كدت افقد عقلي ... »

تشبثت به كأغلى امنية تفوق الدين والدنيا بالنسبة لها .. وشربت مرة اخرى .. وشرب مثلها من خمر معتقة ، كان يرتجف .. لكنها قالت في سخرية عابثة « سوف تحصل على الحياة الأبدية كالحاخام اليعازر .. تصور يا مراد انني غريبة .. غريبة جداً ! احياناً كثيرة احب القذارة .. هذه الغرفة بما فيها من تراب وظلام واتربة وصراصير وأغراض قديمة .. تلذ

لي .. تبعث النشوة العارمة في كياني .. اكاد اتقيأ من سرير داود النظيف وملمسه الحريري ، وأكره الأثاث الفاخر في غرفة نومي .. إشرب هذا الكأس..لا تخف لن يأتي احد الى هنا مطلقاً .. انني اعني ما اقول لقد رتبت كل شيء .. النسوة في دمشق يستمتعن بالحياة الحلوة فَلِمَ أُحرم انا منها ؟؟ اللعنة على كل شيء .. لديّ المال والعطور والمجد .. لكني أبصق على كل شيء لأني اشعر بالحرمان ، ولا اعرف للحب معنى مع داود .. انه ليس رجلاً ومع ذلك فأنا مضطرة لاحترامه .. يا مراد هذه الحجرة القذرة الصغيرة هي جنتي الموعودة، لنشرب ونستمتع بالحياة ، وانت لا تخف .. فقد جاء في التلمود ان « اليعازر » قد فتك بكل نساء الدنيا .. ولم يحرقه الله بالنار .. وانما تحصّل على الحياة الأبدية ... »

دمشق نائمة ...

والظلام كالكابوس المرهق ...

وحارة اليهود تتلوى كثعبان كبير .. في جوفه الجواهر.. والقطع الذهبية .. وزجاجات الخمر .. وغانيات يلعبن بالنار ... ويرقصن رقصات غجرية .. وحاخامات يتحدثون عن الفطير المقدس .. ودم المسيحيين .. وعيد الفصح الذي اقترب ...

٥

ـ « اني اكره هذا الرجل كراهية لا مثيل لها .. »

هذا ما كان يردده سليمان الحلاق دائماً امام اصدقائه من اليهود ، وكان يقول ذلك عن الاب « توما » أمـــام صديقه « مراد الفتال » ويؤكد عليه، في وجود آل هراري، ويصرح به في فخر أمام الحاخام موسى ابو العافية والحاخام موسى سلانيكلي .. وكان يحـاول أن يعلل كراهيته للقسيس تعليلاً دينياً ، فاليهود يكرهون المسيحيين ويعتبرونهـــم وثنيين ، ويستبيحون أموالهم ودماءهم، بل يضعونهم في مرتبة تساوي مرتبة الحيوانات والبهـــائم حسب تعليمات « التلمود » لكن السبب الحقيقي الكامن وراء كراهية سليمان الحـلاق للبادري توما هــو المهنة .. أجل .. لأن سليمان يزاول مهنة الطب ، والأب توما يمارسها هو الآخر ، لكن الجميع يعرفون أن توما يمارسها على أسس علمية ، وتجربة طويلة، أما سليمان فهو محدود الكفاءة ، أغلب نشاطه يدور في مجال « فصد الدم » ولا يلجأ احد الى سليمان إلا في حالة تعذر وجود الأب توما،أو انشغاله بأعمـــال كثيرة ، ومن ثم فلا مناص من أن يلجأ المريض الى سليمان مضطراً .. ويقول سليمان لزوجته « تصوري هذا المأفون المدعو توما يعالج الناس جميعاً بالمجان !! إنه يضحي في سبيلهم بماله ووقته دون ان يجني اية فائدة ، والناس يثقون به. عندما

اتذكر السنوات الطويلة التي قضاها هذا الأبله في خدمة الناس دون اجر اكاد اجن ، لو تقاضى اجراً لكان الآن يملك مئات ألوف الالوف من الدنانير الذهبية ، الأهم من هـــذا كله لو لم يكن هذا الرجل موجوداً في الشام لكنت قد ربحت الكثير من وراء المسلمين والمسيحيين هنا .. لكن ذلك الملعون أغلق باب الثراء والمجد في وجهي .. ولن أنسى ما حييت انه اساء اليّ اكثر من مرة. أجل .. ستقولين إنه لا يسيء الى احد . لكني أؤكد لك انه كثيراً ما كنت أصف دواء لمريض فيأتي هو ليغير الدواء ، لم يكن يتكلم عني بشيء نَابٍ لكن مجرد إهمال علاجي أو تغييره يعني أشياء خطيرة ، معنى ذلك اني جاهل ، كل الناس يسخرون مني، ويتهامسون قائلين : سليمان لا يعرف شيئاً في الطب سوى فصد الدم . آه يا زوجتي .. ربما أفضل ان يتهمني الناس في شرفي ولا يتهموني في كفاءتي في مهنتي .. »

ومع ذلك فقد كان سليمان يعيش في بحبوحـة من العيش ، ويحاول جاهداً أن يتغلب على أحزانـه وهواجسه ، وكان يبتسم في وجه الأب توما كلما تصادف ولقيه في الطريق العام، أو اجتمعا معاً عند مريض. وذات مرة تجرأ سليمان وقال له :

ـ « أيهـا البادري الصالح .. يجب أن تتقاضى أجراً على جهودك الدائبة في الليل والنهار .. الاجر يجعل لعملك معنىً وقيمةً .. حينما تقدم للناس شيئاً بلا ثمن فإنهم يزهدون فيه ..

لا يقدرونه حق قدره .. » ابتسم الاب توما في رقة وقال :

ـ « اي سليمان لا أريد أجراً ، ولا أنشد مجداً بين الناس، إن عينيّ متجهتان دائماً صوب السماء،من أجل المسيح أعمل.. وفي سبيل التعساء من بني البشر أجاهـــد .. والسعادة التي تتدفق بين حنايـا الضلوع هي الثواب الكبير .. إنها نعمة كبرى .. فليبارك الرب مسعانا .. »

كلمات البادري كان لهــا وقع السهام على قلب سليمان ، وابتسامة البادري النقية أثارت حنق سليمان الحلاق ، فتمنى ان ينقض عليه ويخنقه، وهدوء الرجل أشعل عاصفة من الحقد في قلبـه ، لكن سليمان بادله ابتسامة بابتسامة ، وإن كان التناقض كبيراً بين الابتسامتين،وأثنى على فضيلة الأب وحسن إخلاصه ودعا له بمزيد من التوفيق والنجاح ..

قال سليمان لزوجه :

ـ « انني اعتقد ان صلحاء هـذا العالم هم البلهاء .. لو لم يكن لكل شيء ثمن في هذه الحياة لما وَجَدَ الملايين الرغيف.. انظري .. انني ازِنُ عملي بمقدار مـا أسعى من خطوات ، وبقدر ما اقضي من ساعات ، وعلى اساس ما أحققه من نجاح، هذا هو الصواب في رأيي ، لكن هناك نقطة هامة يا زوجتي، انني لم اصل بعد الى الهدف المنشود ، ما معنى ذلك ؟ ليس له سوى معنى واحد هو ان العمل الشريف وحده لا يستطيع ان يصعد بالانسان الى قمة المجد ، لا بد اذن من الوثب ..

القفز العالي..لا بد من التفكير لكي اصل الى الهدف الأعظم..
اراني مضطراً لان اكـذب وأمالىء واانافق واسرق بل واقتل
في بعض الاحيان . ألا ترين كيف حكمت اوروبا العـــالم
وسيطرت عليه ؟ وكيف استطاع الانجليز ان يثبتوا اقدامهم
في الهند ..؟ بل كيف استطاع جيش ابراهيم باشا ان يسيطر
على الشام ؟؟ لا بد من الخوض في دماء البشر وجثث الضحايا..
الاقوياء ينتصرون .. وليست القوة سيفاً ومدفعاً .. لكنها
عقل يفكر .. ولكنها قـوة إرادة تسحق هواجس النفس
وضعفها ، وتسخر من كل القيم النبيلة .. الجَسور وحده ينتصر
ويثرى .. ويبلغ قمة المجد .. »

واحتقن وجه « سليمان الحلاق » وزمجر قائلاً :

ـ « هأنذا ما زلت حلاقاً حقيرا في حارة اليهود .. مهنة
تافهة حقيرة يستطيع ان يتعلمها اغبى خلق الله .. » ثم لمعت
في عينيه بارقة انتصار وقال :

ـ « لكن الامل لم يزل حياً في قلبي .. بيني وبين النصر
خطوة واحدة .. قال لي داود هراري سوف نضرب يا سليمان
ثلاثة عصافير بحجر واحد .. أولاً سنحقق أمراً دينياً هاماً ،
ثانياً نقضي على منافسٍ خطيرٍ ، ثالثـــاً ستربح يا سليمان انت
بالذات مالاً وفيراً .. »

قال زوجه في دهشه :

ـ « انا لا افهم شيئاً مما تقول يا سليمان .. »

ـ « ليكن .. فقد اجتمعنا .. وأصدرنا امرنا .. » لوت الزوجة شفتها السفلى في حيرة :

ـ « تزيدني همّا وغموضاً .. »

ـ « انه امر سري لا يخص النساء .. »

دق قلبها في توجس وقالت : « اني خائفة .. »

ـ الخوف لا يحقق نصراً ولا يصنع مجداً يا امرأة .. »

ـ « من خاف سلم يا زوجي »

ـ «لو اعتصمت بالخوف لبقيت واقفاً في مكاني طول حياتي دون تغيير حتى تجيف جثتي .. وأموت كالكلب .. »

وعاد سليمان الى حجرته وحيداً يفكر ، أخذ يتصفح الوجوه التي التقى بها منذ ساعات في كنيسة الافرنج ، انهم من علية القوم وكبرائهم ؛ الحاخام موسى ابو العافية ، الحاخام موسى سلانيكلي ، داود هراري واخويه هارون واسحاق ، يوسف هراري ، يوسف لينيادو .. ثلة من رجال الدين ورجال المال . في هذا الركب يجب ان يسير سليمان ، ومع هؤلاء الكبار يجب ان يتبوأ مقعده ، ذلك مكانه الطبيعي ، فليفعل اي شيء، انه بذلك يلبي ارادة الله ، ويحقق ذاته ويكسب المال، والمحركات كلها في طيّ الكتمان ، كل شيء قد تم رسمه بدقة متناهية ، وما هي الا ساعات حتى يصبح سليمان انساناً

اخر .. لـن يترك « محل الحلاقة » .. سيبقى كما هو سليمان الحلاق في الظـاهر ، لكنه في الحقيقة قـد ولج باب الجنة الموعودة .. ونال ما يشتهي .. واصبح رجلاً ذا قيمة .. وردد في سعادة :

- « انـه مبلغ كبير جداً ... كبير لو حلقتُ رؤوس اهل الشام جميعاً لما امكنني الحصول عليه .. »

واخيراً ذهب الى فراشه ونام ، كان يردد اثناء نومه « انه مبلغ كبير .. اكبر صفقة في حياتي .. »

وكانت زوجه تربت على رأسه، وهو يغط في نومه، وتقول: « مسكين سليمان .. فليحقق الله لك ما تبتغيه . »

٦

على الرغم من ان الوقت كان عصراً وشهر فبراير (شباط) في بدايته، إلا ان الجو كان دافئاً ، والسماء صافية ، ودير «البادري توما» رائق هادىء بسيط الاثاث تفوح في جنباته رائحة عطرية، نتيجـة لاحتراق العيدان الرفيعة ذات الأريـج ، والتي تبعث بخيط رفيـع من الدخان الأزرق . كان البادري توما يعد نفسه للخروج وقد ارتدى ثوبـه الأسود ، ولف على وسطه الحزام الأبيض ، وهو لا يعدو عن كونه حبلاً نظيفاً بسيطاً ، وارتدى

طربوشه المعروف ، وكان يقف الى جواره خادمه الأمين «ابراهيم عمار» بعد ان ادى صلاته وفجأة قال الخادم ابراهيم :

ـ « ابتاه .. »

التفت توما اليه ، وقد لاحظ رنة حانية عاطفية في نبرات صوته :

ـ « ماذا يا ابراهيم ؟؟ »

قال خافض الراس :

ـ » اريد ان اكون تقياً مثلك .. »

ابتسم البادري في ود وهمس وعيناه تنظران الى الآفاق الرحبة : ـ « من يدري ؟؟ قد تكون افضل مني عند ابينا الذي في السماوات .. »

قال ابراهيم : « مستحيل ، انني اعرف نفسي جيداً .. الخطايا القديمة تغرقني من اخمص قدمي حتى قمة رأسي .. »

قال البادري في رضى: « هذا بداية الطريق .. »

ـ « لكني يا ابتاه اريد ان اجيد القراءة والكتابة ، اتمنى ان احفظ كل الكتب المقدسة الموجودة لديك عن ظهر قلب.. اريد ان اتقن العربية والعبرية واللاتينية والفرنسية .. اريد ان اعرف الطب .. وأعظ الناس..اريد ان اخاطب «السيد» بكل لغة .. بقلبي .. وعملي ولساني وقلمي .. إن بداخلي طاقة كبرى .. »

وعاد البادري يربت على ظهر خادمه قائلاً :

- « أي بني الحبيب ، الله يفهم لغتك دون ان تتكلم .. انه يعلم خفايا القلوب .. الحفاة العراة من الصيادين والجهلة.. فتح لهم بابه .. اصبحوا حواريين لولده المخلص .. واخذت الدنيا عنهم المعرفة والنور .. إنْ يكن قلبك نقياً .. تتفتح لك ابواب السماء وتصير الارض كلها في قبضة يـدك .. ولا حدود لقدرة المؤمن .. لأنها من قدرة الله .. »

القى ابراهيم بنفسه بين ذراعي البادري « توما » وأخـذ ينتحب ، فجفف له دموعه واعاد اليه الامل والاطمئنان ، وظل معه حتى هدأت نفسه تماماً ثم قال :

- « إنني ذاهب الآن يا ابراهيم لألصق إعلانات مزاد تركة « ترانوبا » .. إنهم اصدقاؤنا..وسوف أذهب الى حارة اليهود كي الصق الاعلانات او اغلبهـــا هناك ، وسأخبر صديقي الحميم « داود هراري » بهذا الامر .. »

قال ابراهيم « أتظن انه من الضروري ان آتي معك..؟؟»

- « لا .. لتبق انت لتعد طعام العشاء . ويكفي انـ تحضر لي حقيبتي الصغيرة، فقد ينتدبني بعض المرضى لاسعافهم او علاجهم، ما اعظم ان يداوي الانسان الارواح والاجسام، ولَـكَـمْ كنت اتمنى انـ تكون معرفتي بالطب اكثر من ذلك .. »

تناول البادري حقيبته ، وأدى صلاة قصيرة ثم التفت الى خادمه ابراهيم عمار قائلاً :

ـ « لن ابقى هناك طويلاً فأنا اشعر برغبة في الراحة .. وارجو ان اجد فرصة للقراءة . عندما اقرأ اشعر براحة كبرى .. فليبارككَ الله يا بني الطيب .. وليسدد خطاك.. »

وانطلق البادري يخب خباً صوب حارة اليهود .

٧

كان البادري يشق طريقه عبر حارة اليهود ، وعلى الرغم من أنه اقترب من الستين إلا انـه كان بادي النشاط ، تُرى ملامح السعادة على وجهه الأشقر ، وكان الناس يحيونه من آن لآخر فيرد التحية بابتسامة حلوة ، او يلوح بيده شاكراً ، او ينطق بكلمة شكر مهذبة ، الجميع يعرفون البادري توما ليس في حارة اليهود وحدهـا او دمشق وحسب ، بل إن الرجل لتُشَدُّ اليه الرحال من جميع انحاء الشام ، تقديراً لطبه وفنه، وايماناً ببراعته وخلقه الحسن.ونظر البادري الى «داود هراري» من بعيد فابتسم في رضى ، ان داود صديقه الحميم ، وهو رجل طيب معروف امام الناس بالصلاح والاستقامـة ، حتى انهم كانوا يطلقون عليه «اليهودي الصالح» وبش داود لمقدم توما ، واستقبله فاتحاً ذراعيه ، واحتضنه في حب ، وقبّل وجنتيه ولحيته ، مما جعل البادري يغمغم « صديقي وحبيبي داود » ، وكان يقف خلف داود عدد من اليهود المعروفين: الحاخام موسى

ابو العافية ، والحاخام موسى سلانيكلي وهارون واسحاق ويوسف هراري ويوسف لينيادو . وتمتم الحاخام سلانيكلي :

« ان صداقتكما مخيفة .. لكم نخاف على داود ان تخرجه من دينه ايها الأب توما ، وتدخله في ديانتك ». ضحك الجميع بينما رد البادري قائلاً: « كلنا إخوة » .

وقال داود: « جئت في وقتك ، لدينا ولد نريد ان تعطي له طعماً ضد الجدري الآن .. »

- « من حسن الحظ ان معي حقيبتي ، غير ان معي ايضاً بعض الاعلانات اريد الصاقها على باب الكنيس » .

قال داود: « هيا بنا لاعطاء الطعم اولاً .. وستكون هناك فرصة لشرب الشاي ، ومجاذبتك اطراف الحديث .. اني في شدة الشوق للقياك ، لم اعد اطيق فراقك » .

وسار الرجال في موكب مهيب يتقدمهم البادري وداود والحاخامان الكبيران ، انها صورة للتسامح والمحبة بين اتباع دينين عرف العداء الشديد بينهما من قديم الزمان ، منذ العشاء الأخير للمسيح .. ودلفوا الى بيت داود عبر الباب الصغير ، واجتازوا المشى الضيق المعتم ، وانحرفوا صوب المربع الجديد.

لو قيل للبادري ان البحار هاجت وماجت واشتعلت امواجها نيراناً فجأة لصدق الأمر ، اما ان يرى صديقه الحميم اليهودي الصالح داود يكشر عن أنياب الغدر ، وتنقلب سحنته الطيبة

فجأة الى سحنة شيطان شرير ، ثم يقترب منه يريد ان يفترسه ، فهذا أمر لا يمكن تصديقه ، تمتم البادري « ماذا جرى ولِمَ ؟ » لم يجب داود بشيء . نظر البادري حواليه سائلاً الرجال : « هل تصيبه هذه اللوثة من آن لآخر .. لم أكن أعرف » . وفي لحظات كان البادري مغللاً بالحبال، لا يستطيع الحركة ... وبدأ يشعر بآلام الحبال تحز في جسده الرقيق ، وهمس في دهشة وقد شحب وجهه « انتم أيضاً تشاركون داود فيما يفعل ؟؟ » ونفض البادري رأسه ، وفتح عينيه جيداً ، وهتف في استغراب :

— « هل انا في حلم ام في يقظة ؟ ايها الرجال الطيبون ماذا تنوون ان تفعلوا بي ؟ »

قال الحاخام سلانيكلي ساخراً :

— « أنت مقدم للمحاكمة »

— « لكنكم تمزحون مزاحاً ثقيلاً لا يليق بكم ولا يليق بي »

— « زعمت انك تطمع في تحويلنا عن ديانتنا الى المسيحية أتقر بذلك ؟! »

قال البادري وأمارات الألم ترتسم على وجهه وفي عينيه : « نحن لا نسوق الناس سوقاً الى بابه وحرية الاختيار للجميع، وصاحب كل دين، اي دين، يدعو الناس للهداية بطريقته السلمية. هكذا أمرنا السيد المسيح . »

وضحك الرجال في هيستيرية وقال داود :

- « حسناً ان ديننا يأمرنا بأن نسفك دمك أترانا نطيعه ام نخالفه ؟؟ »

قال البادري وقد دق قلبه بعنف :

- « انك تمزح يا داود »

اخرج الحاخام سلانيكلي كتابـاً صغيراً من جيبه ثم قال : « اذن فلنقرأ كلمات التلمود عن الفطير المقدس المعجون بدم مسيحي .. لنقرأ معاً .. »

واخذ الحاخام يقرأ بضعة سطور ، وعيون البادري تروح وتجيء ، والدموع تبلل أهدابـــه ، ولحيته ترتجف ، وتمتم : « أيها الرجال .. انتم تلعبون لعبة خطرة ، وتفتحون الطريق لفتنة كبرى .. لقد سمعت شيئاً عن ذلك التقليد السيء لكني لم أكن اصدقه ... ليست هذه كلمات التوراة، لقد دسها عليكم بعض الحاخامات الجهلة حقداً على بني البشر ، وانحرافاً بالديانة عن مجراها الصحيح ، انظروا في الأمر جيداً .. انا لم أسىء الى احد منكم .. تدبروا .. إن القتل جريمـة بشعة لا يقرها عرف ولا دين ولا قانون » .

قال الحاخام موسى ابو العافية :

- « لسنا في حاجـة لأن تعلمنا امور ديننا .. إن سفك الدم هو تذكار لمـا أمر الله بني اسرائيل بـأن يلطخوا أبواب بيوتهم بدم الحمل المذبوح في عيد الفصح عندمـــا كانوا تحت عبودية فرعون »

هتف البادري قائلاً :

ـ « لكن ايها الاخ المعظم ، التوراة نزلت قبل ان يأتي المسيح ، وعبودية فرعون لكم قديمة ، فكيف يأتي في الديانة شيء يمس المسيحيين قبل ان يوجدوا ؟؟ ان اي عاقل متبصر يستطيع ان يتبين فساد ذلك .. »

تدخل الحاخام سلانيكلي قائلاً : « اسباب سفك الدم عندنا ثلاثة..أولها كراهيتنا للمسيحيين الذين هم بمثابة حيوانات او وثنيين كفرة مستباح قتلهم ، وثانيها انه قربة الى الله ، وثالثها ان للدم المسيحي فعل سحري في بعض الامور السرية..»

وعند المقطع الاخير تنبه داود ، تذكر عجزه الفاضح أمام زوجه الجميلة « كاميليا » ، وتذكر أن الفطير المعجون بدم المسيحي يرد اليه شبابه الضائع ، وحيويته الغاربة ، قد يُدخل على حياته فوائد جمة تحقق له السعادة في الدنيا والآخرة ، قال داود ساخراً : « اغفر لي يا ابتاه .. »

ـ « وكيف اغفر لغادر يتجنى على الله ؟؟ »

ـ « من عادتنا يا ابتاه ان نبكي على خراب اورشليم .. ولا بد ان ندهن الجبهة من جهة الصدغين برماد الكتان المنقوع في دم مسيحي .. »

طأطأ البادري توما رأسه ، وأظلمت الدنيا في عينيه ، لم يكن يدري ماذا يفعل ، ووقفته امام الموت رهيبة ،

وأشد منها ازعاجاً ان ترتكب الخطيئة الكبرى باسم الدين ، وتذكر اللحظات المذهلة التي ساقوا فيها المسيح الى الميدان الكبير ، يا لها من لحظات !! وشعر البادري بقليل من الراحة ثم تطلع الى السماء .. ناجاها بقلبه ودموعه وسمع داود يقول:

ـ « اننا نحتفل بذكرى صلب الناصري (المسيح) دائماً، لم يكن الناصري هو المسيح الحقيقي .. وتأكد أيها الاب ان المسيح الحقيقي سوف يأتي يوماً ما من اجلنا ، وعند ذبحك سنقول :« هكذا فعلوا بنبي النصارى الذي ليس بنبي حقيقي.. سيأتي في المستقبل أناس عظماء مع المسيح المنتظر راكبين الخيول والجمال فينقذوننا من الأسر ... »

صرخ الاب توما بأعلى صوته :« ايها الكفرة المخرفون... »

قال الحاخام ابو العافية :« اربطوا فمه حتى لا يصيح .. »

وعندما ربطوا فمه ، تمتم الحاخام سلانيكلي :

ـ « يقول التلمود من العدل ان يَقْتُلَ الاسرائيلي بيده كل كافر ، لان من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً الى الله .. » كان النسوة والاطفال في بيت هراري محتجزين في الجناح الشمالي للبيت ،والعاقلات منهن كن يعرفن ماذا يجري هناك، وجلسن صامتات ، وحينما انبعث انين الضحية المتألمة ، وقفت إحداهن والفرح المجنون يرتسم على وجهها المكتنز المحتقن وقالت :

ـ « اتسمعون الانين ؟؟ اضحكوا واسعدوا .. دقـوا الطبول وارقصوا ورددوا اجمل الاغاني الدينية .. هـذا يوم المنى .. أسعد أيام العمر .. »

وكم كانت دهشتهم حينما رأوا « كاميليا » زوجـة داود تلف حول وسطها شالاً حريرياً ثم ترقص في الحجرة الواسعة، وسرعان ما تماوجت حركاتها مع تصفيق الايدي ، ودقـات الدفوف ، وانتشى الأطفال الذين لا يعرفون ما يجري بروعـة ما يشاهدون ، فأخذوا يشاركون فيه في بلاهة ، ويضحكون ويمرحون ويقلدون النسوة . لم يكن غريباً ان يحدث الغناء والرقص في بيت يهودي إذ المعروف في دمشق كلها أن اليهود يقبلون على المرح في كثير من الاوقات ويعشقون الخمر والرقص والغناء ، بل ويقومون ببعض التمثيليات القصيرة الكوميدية تقليداً لاهـل اوروبا ، الى جانب ان البيوت المجاورة كلها يملكها اليهود ، فلن يثير الموضوع شيئاً من الشك او الريبة بل انه سيغطي على صياح الضحية اذا فكر في طلب النجدة أو الاستغاثة .. بعـد أن انتهت كاميليا من الرقص هرولت الى حجرتها الخاصة لتغير ملابسها ، وبصرت بمراد الفتال وهـو يهرول متجهاً صوب باب البيت فدعته اليها فقدم مرتبكاً :

ـ « اتبعني الى حجرتي .. »

ـ « سيدتي ان داود بالبيت .. »

ـ « ايها الاحمق .. اتبعني .. »

ـ « لقد أرسلني في أمر هام ... »

ـ « دقيقة واحدة وترجع بعدها ... »

تلفت حواليه في خوف لم يجد أحداً ، النسوة معزولات في مكانهن لا يصرح لهـن بالخروج باستثناء كاميليا ، والرجال متجمعون حول الاب « توما » الذي أُحكم وثاقه ، ولهذا تبعها مسرعاً ودلف الى حجرة نومها ، وأغلقت الباب ، ثم تعرت من ملابسها وتمطت أمام المرآة وقالت :

ـ « انظر يا مراد .. هذا لك كله .. »

ـ « بالله عليك اتركيني .. الامر خطير .. وجسدي كله يرتجف »

ـ « أعرف ذلك ... هل ذبحوه ؟؟ »

ـ « ليس بعد.. » اقتربت منه وطوقته بذراعيها وقالت :

ـ « لكم احبك . ضمني اليك بشدة . انني لا أنسى اللحظات التي أقضيها معك .. أعطني بضع قبلات عابرة .. لقد شربت كثيراً .. رأسي يدور .. تمنيت أن يحترق العالم كله وأبقى أنا وأنت .. »

قال وهو يتملص في رقة : « سيدتي ليس لديّ وقت.. »

ثم نظرت اليه وقد تغيرت سحنتها : « ما هي المكافأة التي وعدك بها داود بعد اتمام ذبح البادري ؟ »

ـ « لم يعدني بشيء بعد ... »

سددت اليه نظرات وحش كاسر وقالت :

ـ « زعم أنه سوف يزوجك استير.. لقد اخبرني بذلك.. »

طأطأ رأسه وتفصد جبينه عرقاً ، واشتد شحوب وجهه :

ـ « هذا امر سابق لأوانه .. »

ضحكت في خلاعة وقالت : « تستطيع ان تنصرف الآن ، لكن ثق ان كاميليا لن تُهزم .. إنني أقوى منكم مجتمعين .. وانا أعني جيداً ما اقول .. انصرف ايها الكلب . ولا تتردد كلما دعوتك إليّ .. »

اعطاها ظهره ثم اتجه صوب الباب لكنها لحقت به ووضعت في يده مبلغاً من المال كبيراً ، فابتسم ، اما هي فقد تردد صدى ضحكاتها المتكسرة في اروقة الحجرة الضخمة ذات الرياش الثمينة ...

٨

في ذات الإنسان ، في داخله العميق المجهول ، حيز لا يستطيع الخداع ان يتسرب اليه ، انها منطقة حرام مقدسة الجنبات ، كأنما احاطها الله بأسوار وحواجز لا يمكن ان تخترقها قوة الشياطين ، والا لماذا يشعر سليمان الحلاق بالخوف الآن ؟؟

ولمـاذا يرتجف قلب الخادم مراد الفتـال ، حتى الحاخامات والرجال من اسرة هراري يؤدون دورهم البغيض وشيء ما في داخل كل فرد يقول : « لا .. » ويرفض الانصيـاع ، أليس غريباً ان يحدث ذلك وهم مؤمنون بأن ما يفعلونه إنما يؤدونه كفريضه دينية نادى بهـا التلمود وأكدها الأحبار ؟؟ إذن لو كان الأمر أمر دين لمـا حدث هذا التردد ، ولا داهمهم ذلك الخوف ، ولا أعجزهم الارتبـاك .. كل واحد منهم يحـاول جـاهداً ان يقهر تلك النوازع كي يقضي على التردد والخـوف والارتباك، لقد جلس سليمان الحلاق في دكانه منقبض الصدر ، وحينما رأى مراد قادماً نحوه هب واقفاً وهتف : « هل ألغيتم العملية ..؟؟ »

قال مراد وهو يغالب ضعفه ويحاول الظهور بمظهر الشجاع: « سيدي يطلبك على الفور .. »

— «من ؟؟» سدد اليه نظرات ساخرة وقال : «داود ..»

وابتلع مراد ريقه واستطرد : « الرجل على الصليب ، قد كمموا فاه،وربطوه بالحبال ربطاً محكماً .. ولن يتراجعوا .. » ابتسم سليمان ابتسامة شاحبة وقال : « انا قادم معك .. »

— « لا .. بل ستأتي وحدك .. »

— « كنت أريد ان أخبرك .. »

— « بماذا ؟؟ »

– « لقد أتى الخادم ابراهيم عمـار هو الآخر يبحث عن الأب توما .. »

قال مراد في لهفة : « وأين هو ...؟؟ »

أشار سليمان بيده في اتجاه أحد المنازل اليهودية المعروفة وقال : « هنا .. قالوا له إن الأب تومـا بالداخل .. فأسرع الخادم .. ولسوف يلقى نفس المصير الذي سيلقاه القسيس .. »

وفرك مراد يديه وقال : « كل شيء يمضي على ما يرام .. لكني خائف .. »

ضحك سليمان في حزن وقال : « لسوف تتزوج من تحب، استير فتاة جميلة تستحق أن يُضحى في سبيلها ... »

شرد مراد الى بعيد ، تذكر كاميليا تلك الشيطانة الجميلة المثيرة ، هذه المرأة الغريبة التي شرب من كأسها حتى اتخم ، إنه يحبها ويكرهها ، يخاف منهـا ويأنس الى جوارها ، أي تناقض يرزح مراد تحته ؟؟ انا مجرد خادم قد تركلني غداً .. بل تستطيع ان تدس لي السم وتقضي عليّ في اي وقت تشاء، لا ادري ماذا أفعل ومع ذلك فأنا أسير في الطريق.. لا ادري اين تقودني قدمـاي ، لكنها فاتنة غجرية الجمـال لعوب .. قاتلة .. اي امرأة تلك!! استير بالنسبة لها لا شيء .. استير كالشاة الهادئة .. »

قال سليمان:« فيما تفكر يا مراد ؟! أتخاف مثلي ..؟؟ »

رد مراد قائلا :

– « لا .. تذكرت ما قاله الحاخام بالأمس قال : لا محبة ولا عدل مع المسيحيين.. من احتقر اقوال الحاخامات استحق الموت .. اعلم ان اقوال الحاخامات افضل من اقوال الأنبياء.. ومن يجادل حاخامه او معلمه (في الدين) فقد أخطأ ، وكأنه جادل العزة الإلهية .. اقتل الصالح من غير الاسرائيليين .. »

قال مراد وهو يبتسم في لا مبالاة ... :

– « اعرف ذلك كله .. لطالما ردده الحاخامات على مسامع سيدي، كنت استمع اليهم وانا اصب القهوة او اعد النرجيلة.. لكني لا افكر في شيء من هذا .. »

– « فيم تفكر اذن »

– « في استير .. »

– « لسوف تتزوجها .. »

– « هي مسكينة وتعلم كل شيء .. هذه الشاة الصغيرة تعرف تصرفاتي وانحرافاتي .. »

هز سليمان كتفيه دون ان يفهم شيئاً بينما هتف مراد في عجلة :

– « لقد نسينا أنفسنا .. أسرع الى دار داود .. »

– « لسوف احضر الموسى .. »

ـ « لا داعي لذلك .. »

ذهب الخواجا « سانتي » صيدلي المستشفى الى دير الأب توما كي يعيد اليه كتاباً كان قد استعاره منه ، لكنه في ذلك المساء (الاربعاء) وجد الدير مغلقاً .. وطرق الباب فلم يجبه أحد ، أخذ يطوف حول الدير فلم يسمع صوتاً لصديقه ولا حساً لخادمه ابراهيم .. شيء غريب .. ومع ذلك فقد قرر ان يعود من حيث اتى ، وأثناء رجوعه ، مال على الدير الكبير (تيرسانت) واخبر الرهبان هناك بأن البادرى توما وخادمه ابراهيم لم يعودا حتى هذه الساعة ، فلم يكترثوا للأمر ورجحوا أن البادرى ربما يكون قد ذهب لمعاونة بعض المرضى وكثيراً ما يحدث ذلك لأنه لا يرفض طلباً للمساعدة من أحد.

ودمشق تنام ، والعسس يمضون في الطرقات يحكمون ستراتهم لأن نذر البرد تلامس آذانهم المكشوفة ، وعندما تنام دمشق فهو نوع من النوم غريب ، لان الآلاف يتقلبون في الفراش يفكرون ويدبرون ، ويتذكرون الماضي والحاضر ، ويحاولون ان يستشفوا حجب المستقبل .. الاحداث كثيرة.. ولو استطاع أحد الدارسين ان يبحث اسباب الأرق في آلاف البيوت لوجد عجباً .. شاب يحلم بفتاة حلوة احبها قلبه .. رجل يريد ان يأخذ بثأره ، وخيالات الدم تلعب برأسه... تاجر تمتلىء رأسه بالارقام ويطرح ويضرب ويقسم ، سياسي يخطط لمزيد من السيطرة والنفوذ ، ويبحث عن وسيلة لتحطيم أعدائه ،

فتاة كالزهرة تحتضن وسادة حريرية وتترنم بأغنية شعبية .. امرأة تخون ، رجل يسرق، شيخ يقوم الليل ويضرع الى الله، سجين ترهقه القيود والأغلال ، ويستنجد بالسماء - كي تفك إساره .. سكران يضحك ملء شدقيه وكأنه حاز الدنيا بأسرها ، مريض يتلوى من شدة الالم ، شاب يتراقص من شدة الفرح..دنيا غريبة ممتلئة بالكثير من المتناقضات والاعاجيب.. لكن الامور تمضي والموكب يسير .. وهذا الخليط الكبير يعزف سيمفونية ذات نغمات مختلفة..لكنها تعطي لحناً واحداً مميزاً اسمه « الحياة » ومن يستطيع أن يدلف الى دار داود هراري يرى عجباً ... امرأة تبصق على فراشها الحريري .. وأطفال يغطون في نوم عميق ، وداود يتقدم من البادري المربوط ، ويرفع الرباط عن فمه ليعود الى الحديث المكرر .. ويتلذذ بعذاب صديق العمر ..

ـ « ماذا تريدون ..؟؟ »

ـ « لا شيء .. يا توما .. مجرد استجواب .. »

ـ « اني اشم رائحة الغدر .. »

ضحك .. وسخرية .. وتبسم داود

ـ « نحن اصدقاء يا توما ... »

ـ « هذا اسلوب غريب بين الاصدقاء .. »

ـ « هناك أوقات يا توما .. لا يعرف فيها الصديق صديقه ولا الأخ اخاه .. »

ـ « لا افهم .. الناس جميعاً اخوة ... »

ـ « الناس بهائم وحيوانات يا توما الا الاسرائيليين .. قلت لك ذلك ألف مرة ومرة ، هكذا قال التلمود » .

ـ « التلمود لم ينزله الله .. الفرق كبير بين كلمات الله .. وسخافات البشر .. »

التفت داود الى هارون وقال : « الرجل يسيء الأدب وهو على أعتاب الموت .. »

صاح البادري في صبر نافذ : « اقتلوني .. »

« ـ ليس الآن ... »

ـ « اريحوني من هذا العذاب .. »

ـ « هذا مشهد يبعث البهجة في النفوس .. »

ـ « وانا لا أخاف الموت يا داود ... »

ـ « لا تحزن .. سأدفنك هنا في بيتي .. سأقرؤك السلام كل يوم .. ستبقى جثتك هنا الى الأبد .. سنظل اصدقاء برغم الموت وبرغم فظاظتي معك » .

هم البادري ان ينزع نفسه من الوثاق المحكم ، وضحك الرجال وصاح الحاخام ابو العافية :

ـ « كمموا فاه من جديد .. ها قد جاء سليمان الحلاق ... »

٩

دمشق المدينة تبدو كالأرملة التعسة ، تحاصرها العيون ، وتلاحقها الشائعات بعد ان مات عنها زوجها ، ودمشق تجلس كابية حزينة تجتر الآلام ، ويمضهـا الملل ، ويؤرقها الضياع والفراغ ، ولذلك كان حادث اختفاء البادري توما وخادمه ابراهيم عمـار فرصة تشغل الأذهان ، ووسيلة لقتل الوقت والتغلب على الفراغ المميت ، ففي اليوم التـالي — الخميس — كان الدكتور مساري وهو من الشخصيات الأجنبية المرموقة في دمشق يجلس في منزله انتظاراً لعدد من الرهبان وعلية القوم، فقد أعد لهم وليمةً فاخرةً ُظهْرَ ذلك اليوم ، وحضر الجميع ولم يبق الا البادري توما .. وحان وقت الغداء لكن البادري لم يحضر ، ولم يبعث باعتذار رقيق كعادته .. بل لم يعثر له على أثر، وهنا لعب الشك بالنفوس ، وعم القلق جميع الحاضرين ، وليس عجباً ان يحدث اي شيء في مثل تلك الأيام ، هـذه الفترات العصيبة من حيـاة الشعوب تكتظ بالمفارقات الغريبة،وتحدث فيها العجائب،وتكثر الانحرافات ، وصاح الصيدلي « سانتي » :

— « ايها الرجال الأمر خطير ولايمكن السكوت عليه . »

وتهامس الحاضرون ثم علا نقاشهم حتى تحول الى ضجيج واضح ، وقال الدكتور مساري وقد انتصب شاحب الوجه :

ـ « شهد البعض ان آخر مرة رأوه فيها كان في حارة اليهود .. »

وأدرك الجميع ما يهدف اليه السنيور،فرد احدهم على الفور:

ـ « ماذا اقول ؟؟ الشبهات تحوم حول اليهود ... »

وقال آخر :

ـ « لا نتعجل في الاتهام..» وعلق رجل طاعن في السن:

ـ « اثنان من اليونانيين شهدا خادم البادري يهرول الى حارة اليهود عند الغروب وقد أخبرهما انه يبحث عن سيده.. والخادم اختفى هو الآخر ... »

قال الدكتور مساري: « لنرفع الامر الى القنصلية الفرنسية فالبادري تحت حمايتها ويحمل الجنسية الفرنسية .. »

حينما بلغ النبأ مسامع القنصل الفرنسي ، كان قد انتشر بين أبناء المدينة كلهم ، وحدث هرج ومرج ، وتدفق الناس من كل صوب نحو دير البادري ، وأخذوا يلقون الكلمات جزافاً، وأشارت أصابع الاتهام نحو حارة اليهود « هذه الحارة دولة داخل الدولة » « هذه الحارة بحر عميق من الاسرار » «هل نسيتم المذابح التي يقيمها اليهود من آن لآخر باسم الدين؟؟»

وأمر القنصل الفرنسي أحد الرجال أن يصعد سلماً خارجياً ويتخطى جدار الدير الذي يسكنه البادري ودهش الجميع إذ وجدوا أن الباب لم يغلق بالمفتاح وإنما بالمزلاج الصغير ، كما

وجدوا طعام العشاء مجهزاً في المطبخ بجوار الكانون ، وليس لذلك سوى معنى واحداً وهو أن البادري وخادمه كانا قد اتفقا على سرعة العودة لتناول طعام العشاء المعدّ .. وجال القنصل ومن معه في أنحاء الدير فلم يجدوا اي مظهر من مظاهر الاضطراب او العبث. كل شيء في مكانه: الأثاث.. الكتب.. الطعام .. الادوات .. المال .. الملابس اذن لم تحدث سرقة او مجرد محاولة للسرقة وصاح رجل :

« أُقسم ان البادري وخادمه قد قتلا .. » ورد عليه آخر « ولم يفعلها سوى اليهود .. »

ووقف أحد الرهبان من « دير يترسانت » وأخذ يشرح للحاضرين كيف ان اليهود كانوا يشترون الاسرى المسيحيين من الفرس الذين غزوا القدس على ايام « هرقل » ملك الروم، وكيف انه في أيام السلطان سليم الثالث اختطف اليهود طفلاً يونانياً وذلك لاستنزاف دمه ، وثبتت ضدهم التهمة باعترافهم، وشنق ستون منهم .. وعلق كل عشرة في شارع من شوارع المدينة .. وحدث مثل ذلك في انجلترا . وفي فرنسا ارتكبوا جريمة مماثلة ، وقد حضر ملك فرنسا آنذاك « فيليب أوغسطوس » وأشرف على التحقيق،وبعد ثبوت التهمة أصدر حكمه بحرق المتهمين ، وأصدر مرسوماً بطرد جميع اليهود من فرنسا .. وأيضاً حدث شيء من هذا القبيل في المانيا .. فالقصة أيها الأصدقاء قديمة ومكررة وهي من صميم شعائرهم

التي ابتدعها حاخاماتهم وأحبارهم وأثبتوها في التلمود ، ولا تنسوا أن عيد اليهود قد اقترب ، وفي هذا العيد يفكرون دائماً في الفطير المقدس المعجون بدم المسيحيين .. »

وصرخ البعض احتجاجاً واستهوالاً للبشاعة، وسأل واحد من المسلمين :

ـ « ايها الأب .. الا يفعلون ذلك بالمسلمين ايضاً ..؟؟ »

هز الأب رأسه قائلاً « بعض شراح التلمود يزعمون انه يجوز سفك دم المسلمين،وحجتهم في ذلك ان كثيراً من المسيحيين دخلوا الاسلام .. »

وابتلع الراهب ريقه وقال في انفعال : « إن شعائرهم تفضل الذكر على الأنثى في مسألة الدم ، ويفضلون الطفل عمن عداه ، ويعتقدون ان في الدم المسيحي خلاصاً لنفوسهم .. »

وقال رجل سوري تلقى تعليمه الديني برواق « الشوام » بالأزهر الشريف « عندي بذلك علم ... فاليهود يفعلون ذلك كثيراً .. لكن يجب ألا نتعجل في نشر الاتهام .. »

فهاج عدد من الحاضرين وصرخ أحدهم : « يا مولانا لقد اجمع الشهود على رؤية البادري وخادمه لآخر مرة في حارة اليهود .. »

ـ « لا تصدروا حكماً الا بعد التحري والدقة .. هكذا يكون العدل » .

وصاح شاب مسلم :

ـ « لا عدل مع من لا يعرفون العدل .. »

وتحرك الجمع الصاخب نحو المدينـــة ، وساد الذعر جنبات حارة اليهود ، وأقسموا الايمـان المغلظة بأنهم لا يعرفون شيئاً عن البادري أو خادمه ، وانما الرجل المفقود صديقهم الحميم ، وهم يحبونه أعمق الحب،بل تطوع احدهم برصد مكافأة مقدارها خمسون ألف قرش لمـن يظهر البادري او يدل عليه حيـاً او ميتاً .. ولجأ اليهود الى المسؤولين يطلبون الحمـــاية ، وينفون التهمة بشدة، ويؤكدون ان هناك بعض المغرضين الذين يريدون إثارة الفتنـــة بين الناس ، ويهدفون إلى اشاعة الاضطراب والفوضى في أرجاء المدينة ، لكن قنصل فرنسا كان له رأي آخر ، فقد كتب مذكرة ضافيــة عن ظروف اختفاء البادري وخادمه، واتهم اليهود صراحة بأنهم هم المسؤولون عن اختفاء الرجل، ورفع هذه المذكرة الضافية الى « شريف باشا » والي دمشق الذي امر على الفور بـأن يذهب « التفتيشجي » باشا الى حارة اليهود ليبحث عن المفقودين ، وأعطاه الصلاحيات الكاملة لدخول أي مكان ...

انسكبت الدموع من عيني اليهودي الصالح « داود » .

ـ « لا استطيع ان اصدق ان يكون البادري قد أصابه سوء .. إنه آية من آيات المحبة والنبل والوفاء ولا تجرؤ يد ان تمتد اليه بأذى .. »

ولم يسفر البحث والتقصي عـن العثور على شيء ، وأخذ

الناس يضربون كفاً بكف ، بينما لجأ اليهود الى بيوتهم خوفاً وهلعاً ، حتى تنجلي الغمة ويسود الأمن والهدوء ، وخاصة ان بعض المتحمسين من شباب المسيحية والإسلام قد هددوا بالانتقام .

تنهد داود هراري في ارتياح حينما وصل الى بيته وأمر خادمه مراد الفتال بأن يحكم اغلاق الباب ، وان يظل يقظاً لأية حركة،مخافة ان يدهمهم أحد المعادين على حين غرة،وطلب منه ان يقف خلف الباب لا يغادره لأي سبب من الأسباب ، واقبلت كاميليا يفوح من اردانها العطر،وتواكبها الفتنة الطاغية، وقميص النوم الوردي يكشف عن مفاتن جسدها المثير،وجلست امام داود على السرير الموشى بالفضة المغطى بالحرير، ثم أعطته ظهرها والقت برأسها على صدره ، وأخذت تعبث بشاربه ، كان في غاية من الضيق لا مثيل لها ، ولما لم يستجب لمداعبتها وعبثها همست بصوت حنون : « هل أصب لك كأساً من الخمر ..؟؟ »

ــ « لا اريد شيئاً .. »

ــ « اذن قبّلني ... »

اراد ان يسكتها ، فطبع قبلةً باردة على جبينها .

ــ « يا لك من رجل غريب الأطوار .. انا لست طفلة .. انظر اليّ جيداً .. »

دفعها عنه بهدوء وتمتم :

ـ « ليس هذا وقته .. »

ـ « متى نأكل الفطير المقدس ؟! إن ثقتي بمفعوله السحري لا حد لها .. »

هب واقفاً وصرخ .. :

ـ « لا تذكري هذا الأمر ... »

ـ « ما الذي يكربك ؟؟ قريباً تخفت الضجة .. وينسى الناس كل شيء .. عندئذ يعود اليك شبابك .. »

قال في ضيق : « انت تتكلمين في جرأة وقحة .. »

ـ « انت زوجي .. »

ـ « الزمي جانب الادب .. »

ـ « الا يحق للزوجين أن يتبادلا عبارات الغزل .. »

تمتم ببيت قديم شهير من الشعر العربي :

أبيت اسري وتبيتي تدلكي
شعرك بالعنبر والمسك الزكي

همست في دلال :

ـ « أنا لا احب الشعر .. فلنغرق أسانا في الكأس والعبث .. »

دفعها هذه المرة في عنف وقال :

ـ « اليك عني .. ان جفوني لم يقربها النوم ليلة امس .. وأنت كنت تغطين في نوم عميق .. »

تمتمت في غيظ : « مسكين . ليتك مثلي تعيش لحظتك الراهنة وتنسى ما عداها .. بذلك نسعد بحياتنا » .

لشد ما يكره كاميليا الآن ، ليس لوجودهــا معنى ، هي في واد وهو في واد آخر ، هي تضج انوثـــة وحيوية وتعيش كالسكرى ، وهو يتمزق وهنـــاً وقلقاً وكمداً ، انهما غريبان يفصل بينهما صحارى واسعة من فـــارق العمر والاهتمامات والآمال ، لكنه جاهد غضبه وحاول ان يسترضيها فقال :

ـ « يا حبيبتي.. إن الأمر خطير .. إنني اعاني من الهموم مـــا لا يطيقه بشر .. فلتحترمي أحزاني وآلامي .. وأمامنا فسحة من الوقت بعد ذلك .. »

وقبل أن تجيب عليـــه بكلمة سمع صوت هارون هراري ينادي :

ـ « داود .. داود .. الكارثة على الأبواب .. »

وثب من فوق سريره، وفتح الباب ووقف شاحب الوجه، قلق النظرات ، وهمس في ضعف :

ـ « ماذا جرى ؟؟ »

قال هارون : « لقد قبضوا على سليمان الحلاق وساقوه الى التحقيق .. »

صرخ داود في ذعر:« مستحيل كيف تسرب الأمر..؟؟»

— « الى اين ..؟؟ »

— « يجب ان نواجه الكارثة لنقضي عليهـا قبل ان تطبق علينا بجناحيها السوداوين .. »

— « ماذا ستفعل .. ؟؟ »

— « سأتصل بسليمان وأمنيه الأمـــاني واؤكد عليه بالا يعترف بشيء مهما كان الأمر .. »

تنهدت كاميليا في ارتياح بعد أن خرج زوجها، وابتسمت وسرت قشمريرة في بدنها وهي تفكر في الخادم مراد الفتال .

١٠

قال حاذق بك المشرف على التحقيق في قضية اختفـــاء البادري توما وخادمه :

— « إن امامنا خيط رفيع قد يوصلنا الى الجناة ، ونرجو الا ينقطع.انه مجرد بصيص من النور قد يلقي ضوءاً على الفاعل..

لقد لاحظنا ان اعلانات المزاد التي كان يلصقها البادري بنفسه يوم الأربعاء الماضي موجودة في كثير من الأماكن وخاصة الكنائس منذ يوم الأربعاء ، لكن يوجد إعلان لم يلصق الا بعد يومين على باب سليمان الحلاق اليهودي ، الذي يقع محله بجوار كنيس اليهود، فلماذا تأخر وضع هذا الاعلان بالذات؟؟ لا تسخروا مني ، فان أول الغيث قطر ثم ينهمر، اقبضوا على سليمان الحلاق وأحضروه اليّ على الفور دون ان يشعر بذلك أحد .. »

حينما دهموا سليمان في محله ، كان يحلق للزبائن في هدوء غريب ، لم يكترث لما يراه ، وعندما قال له « التفتيشجي » « تعال معنا » اظهر استغراباً ودهشة ، ليس الأمر إذن مجرد تدقيق عابر، لماذا اختاروه هو بالذات ؟ هل فعلها أحد الخونة ووشى به ؟ مستحيل .. ان انكشاف الأمر يعني الخراب والدمار بالنسبة للجميع ، سوف يساق الحاخامات واسرة هراري الى الجحيم .. لا .. قد يكون هناك مجرد شك ، والحلاق معروف بأن محله مأوى للكثيرين « ربما استدعوني ليعرفوا الشائعات التي تتناثر هنا وهناك ، او لعلهم ظنوا ان حلاقاً مسكيناً مثلي ، يستطيعون الضغط عليه، والحصول منه على معلومات ، وهذا أمر بسيط، أستطيع أن العب بهم أو أدعي البلاهة ما دام المحققون لا يملكون ادنى دليل ضدي..» ومع ذلك الاطمئنان الظاهري الذي حاول به سليمان ان

يهدىء من روعه الا انه كان يسير في الطريق كالمنوم او المخدَّر، عيناه زائغتان وقدماه تتعثران في الطريق الطويل ، وقلبه يضرب في عنف ، حتى يكاد الرائي ان يشهد الضربات تحت ثيابه ، وأنفاسُه لاهثة ، وشعور بالاختناق يطبق على صدره وحنجرته ، حاول ان يتحدث بأي كلام، فاحتبست الكلمات في حلقه ، وأخذ يبتسم في بلاهة تثير الشك والريبة ...

وحضر الوالي شريف باشا بنفسه وأحضروا له سليمان الذي أنكر علمه بأي شيء ..

ـ « ما هي معلوماتك يا سليمان عن الاعلان ؟ »

ـ « الاب توما وضع اعلاناً على دكاني وانصرف » .

« ـ بأي برشانات ألصقها البادري ..؟؟ »

ـ « ببرشان أحمر وآخر ليلكي (بنفسجي غامق) » .

ـ « كيف عرفت هذه الألوان مع أنها تحت الورقة ؟؟

ولماذا وُضع الاعلان في مكان مرتفع؟ وكيف وصل الاب توما لهذا المكان المرتفع ؟؟ »

قال سليمان وقد داهمه ارتباك ظاهر :

ـ « كنت أرى المارة يعبثون بالاعلان ويلمسونه ، فخفت عليه من التلف والضياع ، فأخذته من محله الأصلي وألصقته في مكانه الحالي .. »

ـ « ألا تعلم ان باقي الاعلانات كانت ملصقة بطريقة مغايرة للطريقة التي لصق بها الاعلان على باب محلك ..؟؟ »

ـ « كيف ..؟؟ »

قال شريف باشا :

ـ « الاعلانات الموجودة على الكنائس الفرنساوية وجدت ملصقة بأربعة قربانات من القربان المستعمل عند الرهبان ، والرهبان عادة لا يستعملون البرشان العادي .. »

قال سليمان وقد حاصرته التهمة :

ـ « لا أدري .. »

صرخ شريف باشا في غيظ :

ـ « انت تعرف الحقيقة .. »

ـ « الحقيقة لا يعلمها إلا الله .. »

ـ « لقد أمرنا الله بالعدل .. »

ـ « أعرفُ يا مولانا ... »

ـ « وقد أُهدر دم رجل برىء صالح دون جريمة ارتكبها .. »

ـ « هذا حرام .. »

ـ « ولا بد أن يظهر الحق .. »

ـ « اتمنى ذلك ... »

ودق شريف باشا بقبضته على منضدة صغيرة :

ـ « نحن مسؤولون عن حمـاية أرواح الناس ومحاصرة الجريمة .. »

ـ « لقد قلت مـا أعرف .. وليس لدي جديد .. أضيفه .. »

سدد اليه شريف باشا نظرات ملتهبة وقال :

ـ « سنعرف كيف ننطقك بالحقيقة خذوه .. »

وسيق سليمان الى الحبس الانفرادي، لكـن داود هراري استطاع ان يلتقي به أثناء ترحيله الى السجن «احذر يا سليمان.. لقد قررنا ان نعطيك مبلغاً كبيراً من المال ، تعيش به سعيداً طول حياتك ... ولا تنس ان اوامر ديننا يجب ان تحترم . لا اعتراف حتى لا يعاقب اسرائيلي أنت تعرف ذلك .. » حينما جلس سليمان الحلاق وحيداً في زنزانته المظلمة حط على قلبه حزن ثقيل ، الوحدة والانتظار والخوف تحالفت كلهـا لسحق مشاعره ، وطمس معالم المستقبل أمامه ، شعر بضيق بالغ ، تذكر بيته وزوجـه وأبناءه وأباه ، تذكر اللحظات الهنيئة التي يقضيها في محله يحلق الشعر أو يفصد الدم وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا تكتفي الديانة بالدم المفصود بدل القضاء على الضحية ..؟؟

الأخطر من ذلك كلــه ان نوازع من الشك أخذت تراود خياله ، بدأ يشك في صحــة كلام الحاخامات وصحــة شروح التلمود ، هــا هي عقيدته تتزعزع .. لا .. يجب ان يتماسك ويكون مثالاً لليهودي الثابت على مبدئــه ، يجب ان يصمد للفتنة ويواجه العاصفة بقلب مؤمن ، اذا كانت ديانته على حق فان الله سيحميه وينصره ومع ذلك فان الشك يراوده . وبدا الكفاح من أجل مبــادىء التلمود أمراً هزيلاً ، بل حماقــة كبرى ، إن العبء ثقيل والتضحية باهظة التكاليف، وسليمان يريد ان يعيش ، لمــاذا دس أنفه في مشكلة كهذه ؟؟ آه .. نظرات القس الذبيح تطالعــه الآن في ظلام الزنزانــة .. في العيون ضراعــات قاتلة يا الهي !! والرجل شاحب الوجــه يستنجد بالمروءة ولا احد يجيبه يا الهي.. كان استسلام القسيس رهيباً .. ما أقسى استسلام الضعفــاء حينما يساقون الى الموت ظلماً .. وأخذ سليمان يتلفت في الزنزانة يمنة ويسرة.. يحاول أن يهرول من الأشباح التي تملأ عليه أفقه الأسود .. أيها الأب تومــا .. انا لم أرد أن أسيء اليك .. لا تنظر إليّ هكذا انا عبد أنفذ ما يأمرني به كبار الرجال .. قرأوا لي في التلمود.. حشوا رأسي بالكلمات المقدسة ، وانا إنسان جــاهل .. فقير مسكين .. »

انتبه سليمان الى نفسه ، انه يهذي ، أحيانــاً يتكلم بينه وبين نفسه ، وأحياناً أخرى يرتفع صوته على الرغم منه ،

تحسس الجدران الباردة ، ووضع خده على الأرض ، ثم أخذ يدق الأرض ويدق رأسه في هيستيرية ويصرخ « انقذوني .. اكاد اموت.. الرحمة »،قدم السجان،نظر اليه بعينين يتقد منهما الشرر .. وللسجان سحنة متميزة لم يعرفها سليمان من قبل ، ركله السجان في غلظة ثم هدر :

ـ « لا اريد ان اسمع صوتك .. أتفهم .. ؟؟ »

انكمش سليمان كفأر مذعور .. رفع عينيه في ضراعة ثم هتف : « أليس لك اولاد ؟؟

ـ « اتريد ان تذبحهم ..؟؟ »

ـ « أنا مسكين ، انا لم ارتكب جريمة .. »

انحنى السجان صوبه أمسك بكتفه ثم جره خارج الزنزانة :

ـ « خير لك ان تعترف .. أنا اعرف جيداً كيف أقنعك بقول الحقيقة..وشريف باشا وعد بالعفو عنك اذا اعترفت.. وسيكتب لك « فرماناً » بذلك .. إنها صفقة رابحة.. ولابد يوماً ما أن تعترف، لكن الاعتراف اليوم له قيمة .. وغداً لا قيمة له .. أنت ذكي وتفهمني » .

أحنى سليمان رأسه وقال « لا استطيع الصبر .. لا استطيع ..

١١

الخديعة الكبرى التي وقع فيها سليمان هو انه كان يظن ان النجاح كان حليفه ، ولن يستطيع احد ان يميط اللثام عن الجريمة ، وكيف لا يطمئن باله وهو يرى أنها دبرت بليل ، وأشرف عليها جمهرة من كبار رجال الدين والمال، وأن آثارها قد عفي عليها تماما؟؟ فهو لم يشارك في الجريمة شجاعة منه أو استهتاراً بما يتبعها من نتائج،وإنما شارك ثقة منه في عدم القدرة على اكتشافها ، اماوأن اصابع الاتهام تشير اليه والشبهات تحاصره من كل جانب ، والدائرة تضيق من حوله ، فلا بد أن يفكر تفكيراً عاقلا رزيناً ، فالزنزانة شديدة السواد مخيفة ، والوحدة قاتلة ، وهو يخاف عيون السجان ونظراته القاسية ، وثقته في كلمات الحاخامات اصبحت ضعيفة ، واحتماؤه برجال المال — ذوي السلطة والنفوذ — لم تعد ذات جدوى ، فلماذا لا يفكر بمنطق التاجر ؟ لماذا لا يفكر في مصلحته الذاتية دون اعتبار للواجبات الدينية أو علاقات الصداقة ؟؟

قال سليمان حينما احضروه امام المحقق :

— « لقد رأيت الاب توما عند العصر يسير مع داود هراري وأخويه هارون وإسحاق ، ويرافقهم يوسف لينيادو والحاخام أبو العافية والحاخام سلانيكلي..وكانوا جميعاً داخلين في شارع الثلاج المتفرع من حارة اليهود حيث يوجد منزل

داود ، ويستطيع الباشا ان يستحضرهم لكي اعترف امامهم بذلك ، وأواجههم بالحقيقة،هذا وقد مر هنا منذ فترة وجيزة « اسحاق بتشوتو » صديق آل هراري ، وهو تحت الحماية النمساوية،وسألني هل اعترفت بشيء؟ ولما اجبته سلباً قال لي: « سأتوسط في خلاصك » وتركني ومضى .. ولو كنت اعلم ان مواعيده مواعيد عرقوب لكنت اعترفت فوراً ..

كان هذا الاعتراف على الرغم من أنه لم يكن كاملاً ، ذا أهمية بالغة ، إن الحقيقة ستتكشف رويداً رويداً ، وصدر أمر الباشا باستدعاء الأشخاص الذين ذكرهم سليمان الحلاق ، وكانوا في رفقة البادري المفقود .. أبدى داود دهشته حينما رأى رجال الدولة ، وعلى رأسهم «التفتيشجي باشا » يطرقون بابه،وتمتم فيشحوب وهو يسرع بارتداء ملابسه « يا للكارثة؟: يبدو ان سليمان قد انهار . » ونظرت اليه زوجه كاميليا في رعب وهتفت :

ـ«ما معنى ذلك ؟؟ »

ـ « اتهام ... »

ـ « شبهة أم اتهام ؟! »

ـ « من يدري؟ قد تكون تحرياتهم قد اثبتت أن البادري كان يسير معنا ، وفي مثل هذه الحالة يكون الافلات سهلا .. فنحن جميعاً متفقون على الانكار .. »

قالت كاميليا والدموع تبلل اهدابها ؟؟:

ـ « ومتى ستعود ..؟؟ »

تنهد في حسرة وهمس :

ـ « ليتني اعلم .. »

تشبثت بأذيال ثوبه ، وأخذت تقبل وجهه وعنقه ويديه ثم صرخت :

ـ « لن اتركك .. لسوف آتي معك .. »

استنكر كلماتها وهتف :

ـ « مستحيل .. ماذا يقول الناس ؟؟ »

ـ » كيف أحيى بدونك ..؟؟ »

ـ « نحن لم نرتكب خطيئة لقد نفذنا أوامر الديانة.. ولن يتخلى عنا الله .. »

كان يعزي نفسه في الحقيقة ، بل يحاول جاهداً ان يقهر عوامل الضعف والخوف والندم التي أخذت تشيع في جنبات قلبه وعقله ، تماماً كما حدث لسليمان وهو في زنزانته المظلمة ، انها لحظات تصيب الكثيرين من رجال العقائد عندما يتعرضون لهزات عنيفة ، أو زلزلة قوية ، فتجعلهم يعيدون النظر فيما يؤمنون به ، وهم في هذه الأوقات يحاولون التشبث بمبادئهم

على علاتها ، الخاطيء منها والصحيح،لأنهم يشعرون في داخلهم أن نذر التردد والشك تداهمهم فجأة ..

وتمتم داود : « يجب ان يختفي مــــراد » وليته يستطيع الهرب .. انني لا أثق في الخدم ، وهم سريعوا الانهيار.. مثله مثل سليمان حسبما أعتقد .. يجب ان تهتمي بذلك يا كاميليا..»

قالت في ثقة : « اطمئن سأخفيه ولن يعثر عليه أحد إلا بأمرك.»وما ان انصرف داود مع «التفتيشجي» حتى أسرعت كاميليا باستدعاء مراد الفتال،كانت تجفف دموعها،وتشعر برغم كل شيء بمرارة شديدة من أجل زوجها المسكين ، انها تكره في زوجها أشياء كثيرة ، لكنها في هذا الوقت بالذات شعرت انه زوجها وابو اولادها ،وعماد بيتها ، هناك نوع من الرابطة لا يموت مهما اختلفت الامزجة ، وتضاربت المشاعر بين الزوج وزوجه ، لقد رأت زوجها يمضي ذليلاً خائفاً وسط رجــال «التفتيشجي»،فتمزق قلبها ألماً وحسرة،كاميليا لا تفهم تفسيراً لما يعتمل في نفسها ، ومن ثم فهي تترك مشاعرهــا ، تنطلق حسب هواها :

قال داود هراري عندما وقف أمام الباشا :

ـ « لم انظر الاب توما منذ شهرين او ثلاثة ، وليس من عادتي الاختلاط بهؤلاء الخواجــــات .. منزلي فعلاً في شارع الثلاج ولكني لا اعرف شيئاً عن ذلك اللقاء المزعوم .. »

اما يوسف لينيادو فقد تلعثم قليلاً ثم قال :

ـ « كنت في منزلي ولم اخرج إلا يوم الخميس قرب الظهر، لأن ابنتي توفيت منذ خمسة عشر يوماً ، وعادتنا ألا نخرج من منزلنا مدة سبعة ايام ، عند وفاة احد اقاربنا، وبناء على ذلك فأنا لا أعلم شيئاً عمّا أسأل عنه الآن » .

اما اسحق هراري، شقيق داود، فقد قال في ثقة وتأكيد:

ـ « لا معلومات لدي . انا تاجر مشغول بتجارتي .. هي كل شيء في حياتي .. »

اما العجوز يوسف هراري فقد سعل ، ثم قال في وهن :

ـ « منزلي في شارع الثلاج ، وانا لا اخرج الا نادراً بسبب تقدمي في السن، لم اقابل الاب توما منذ ثلاثة شهور .. آه.. لقد ربيت بين المسيحيين .. ينامون عندي وانام عندهم .. آكل من طعامهم ويأكلون من طعامي .. نحن إخوة احباء برغم اختلاف الديانة .. »

ورفع الحاخام موسى ابو العافية رأسه في اعتزاز ظاهر وتمتم :

ـ « لم اقابل احداً ممن ذكرهم الحلاق منذ ستة شهور ، ومن المحتمل ان نكون قد تقابلنا مرة بمحض الصدفة ثم افترقنا ، غير اني لا اذكر ذلك مطلقاً .. والانسان مطبوع على النسيان .. وبخصوص الاب توما فأنا لم اره منذ شهرين تقريباً .. »

وتقدم هارون هراري قائلاً :

ـ « منزلي مجاور لقنصلية انجلترا ، ولا اذهب الى إخوتي في حارة اليهود إلا نادراً ، لم اتقابل مع الحلاق منذ ثمانية ايام .. انا من الاشخاص ذوي السلوك الحميد .. لم اجتمع مع مع هذه الجمعية ، هذه التهمة ملفقة ضدنا .. ربما قال الحلاق سليمان ما قاله مخافة الضرب » .

اما الحاخام الثاني موسى سلانيكلي فقد انكر كل شيء بالكلية ...

وواجهوا المتهمين بسليمان الحلاق الذي اصر على اقواله ، بينما اخذ المتهمون يتقدمون اليه واحداً واحداً ويقولون :

ـ « لماذا تفتري علينا يا سليمان يا حبيبي ، اطلب من الله ان ينقذك مما انت فيه .. لا يمكنك ان تصمم على هذا الكلام المخترع ..!! »

لم يزل الطريق الى كشف غوامض الجريمة محفوفاً بالصعاب، أيمكن ان يكون سليمان كاذباً فيما ادعاه ؟ وهل بينه وبين الذين اعترف عليهم عداوة شخصية او يريد ابتزاز الاموال منهم ..؟؟ إن كل الشواهد تؤكد ان علاقة سليمان بالمتهمين لا غبار عليها ، وان الصلة بينه وبينهم وطيدة منذ زمن بعيد ، وهم يثقون به ويثق بهم ، وجميعهم من زبائنه سواء في مجال الحلاقة او الحجامة .. وتمتم حاذق بك المشرف على التحقيق :

- « سليمان يخفي الحقيقة .. ومعنى ذلك انه ضالع في الجريمة .. »

« ثم امر بحبس جميع المتهمين في الزنزانات الانفرادية بحيث يتعذر ان يتصل احدهم بالآخر ، ثم اتى بسليمان واصدر امره باستعمال الكرباج .. فصاح سليمان في خوف « لا ... سأقول كل شيء . »

وأحاطت به العيون وتلهفت الأسماع ، لقد مضى على التحقيق حوالي تسعة ايام دون فائدة تذكر ، ودمشق كلها ساهرة حائرة ، الناس يتساءلون ، وعلامات الاستفهام ترتسم على الوجوه في الشوارع وفي البيوت والمحلات التجارية .. في المزارع.. في القنصليات ، وقنصل فرنسا يرسل تقارير يومية الى باريس.. ولا بد ان يجيب التحقيق على علامات الاستفهام التي تنطلق في كل مكان .. والا حدثت كارثة دموية ..

١٢

لم يستطع المحققون ان يقبضوا على اليهودي المعروف « بتشوتو » ، وهو رجل داهية غريب الأطوار يعمل موظفاً كبيراً في القنصلية النمساوية ، وهو احد رعاياها ، وقد كان يُظن انه وثيق الصلة بجريمتي قتل البادري وخادمه . حتى بعد

أن اعترف سليمان بأن « بتشوتو » حـــذره من الاعتراف ووعده بالخـلاص نفى « بتشوتو » التهمة بشدة ، واحتج على ذلك ، بـل كان يرد على اسئلة المحققين في تبجح وصفاقة .. هذا الذئب الداهية عندما فكر في الأمر ادرك ان سليمان على وشك ان يلقي أمام المحققين الحقيقة كاملة ، ففكر هو وجماعة من اليهود ان يقوموا باغتيال سليمان الحلاق ، حتى ينقطع خيط التحقيق الى الأبد ، وفكروا أيضاً في قتل الخادم مراد . وبالنسبة لسليمان، لم تنجح أية خطة في التخلص منه، فالحراسة مشددة والسجن لا ُيسمح لأحد بدخوله، ومن ثم لم يكن هناك من وسيلة سوى دس السم في طعام المسجونين وهذه الطريقة لا تودي بحياة سليمان وحده ، بل بحياة العشرات .. ومـع ذلك فإن هذه الوسيلة قد فشلت هي الأخرى ممـــا جعل « بتشوتو » يعاني من هم قاتل لا من اجل نفسه فحسب،بل من أجـــل اليهود المتهمين الذين احتجزوا في الحبس ، وأشار الى « مدام كاميليا » كي تحاول التخلص من خادمها مراد الفتال فأبدت اعتراضاً وجيهاً :

ـ « ان الامور لا تعالج هكذا يا بتشوتو .. سنجر أنفسنا الى مزيد من المشاكل وسيعرف الجميع معنى ذلك.. إننا بقتلنا سليمان أو مراد سنفتح ملفاً لقضية جديدة، ولن يعدم المحققون وسيلة للسيطرة على أحد الضعفاء فيقر بالحقيقة .. »

هز بتشوتو كتفيه في أسف ثم قال :

ـ « اليوم قد يعترف سليمان ، وقد تفلت فرصة النجاة الى الأبد ، تذكري أن زوجك يعاني من آلام السجن ومعرض لحكم الاعدام .. ويوسف هراري قد زادت حالته سوءاً .. »

هبت واقفة وقالت في حزم :

ـ « لا أستطيع أن أقرك على رأيك .. »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « في إمكانك انت ان تفعل ما تشاء ، إنك تبحث دائماً عن أدوات لتنفذ لك رغباتك .. »

انصرف بتشوتو مكفهر الوجه ، وآبت كاميليا الى حجرتها ، وأسرعت الى زجاجة الخمر ، وأخذت تعب منها ، ويداها ترتجفان ، ثم دارت رأسها ، تركت غرفتها ، مضت عبر الردهات والممشى الطويل ، في آخر الدهليز توجد الحجرة القذرة .. الحجرة المعتمة التي تثير مشاعرها ، وتذيب كيانها ، وتغرقها في بحر من النشوة القاتلة .. هناك تخبيء مراد اللعين ، أحكمت إغلاق الباب من الداخل ، قدمت له طعاماً وشراباً ، وجلسا يأكلان ، أشرقت عيناها بالفرحة الجنونية .

ـ « لقد أصبحت لي وحدي » ..

ـ « أنا عبدك يا سيدتي » ..

ـ « في نظري أنت من كبار السادة » ..

ـ « هذا كثير جداً .. »

ـ « ايها الابله .. لا فرق بين غني وفقير .. »

ـ « لكني خادم .. »

وانفجر باكياً ، فهتفت :

ـ « ماذا جرى يا مراد .. ؟؟ »

ـ « أبكي من اجل سيدي .. ومن أجل نفسي .. »

ـ « لا تخف .. »

ـ « الناس يقولون لو لم يأمر الباشا بإعدامنا لأحرقونا أحياء .. »

لفت ذراعها حول عنقه وأخذت تلامس شفتاها وجهه وعنقه ، لكنه كان بارداً كالثلج ، دفعته في غيظ وصرخت : « ماذا بك ؟؟ لن تستطيع الجن ان تعرف طريقك .. »

ـ « لا أستطيع التخلص من رعبي .. إنه يقهرني .. »

ـ « القضية تافهة .. واليهود سيدفعون مئات الألوف ليضيعوا معالمها، تذكر ذلك جيداً ، المال هو خاتم سليمان .. » ثم اخذت ترقص وتهز أردافها وتعب الكؤوس .. وتغني بصوت ناعم غير متسق :

ـ « لبيك شبيك .. أنا بين يديك .. »

وظلت تعابثه .. تشد شعر رأسه ثم تنزع شعرة من شاربه، وتجلسه وتدفعه الى امام والى خلف... جفت دموعه ، وسرى الدفء في جسده ، وابتسم. كانت عيناه حمراوين ، يتأرجح دون وعي ، يضحك ويبكي ، وانطرحـــا على فراش الإثم ، لكنها إزاء اللحظات الحاسمة تسمع صرير الباب .. أهي في حلم؟ انها مجرد اوهام لا شك في ذلك .. وفوجئت بالخادمـة « استير » تقف أمامها ترميها بنظرات شرسة .. لم يكن لدى كاميليا كلمة لتدافع بها عن نفسها وقـد وجدت مع خادمها متلبسة بالجريمة ..

ـ « كيف دخلت الى هنا ؟؟ »

ـ « مفتاح سيدي كان بجيب الصدار .. »

ـ « اخرجي يا كلبة .. »

ونهضت وهي غارقة في خجلها وعارها وصفعت الخادمـة على وجهها ، لم تتحرك « استير » وإنما ظلت تلهبها بنظراتها القاسية .. بينما طأطأ مراد رأسه في أسى :

ـ « لهذا تعترضين على زواجي منه .. »

ـ « منذ متى تجرؤين على مخاطبتي بهذه اللهجة ...؟؟ »

لم تكترث « استير» وأردفت تقول :

ـ « شككت في الأمر من قديم.. لكني أردت ان أتأكد بنفسي » .

ـ « من تكونين ؟؟ حشرة .. اقتلها يا مراد .. »

ضحكت استير :

ـ « دمي لا يصلح للفطير المقدس .. »

ادركت كاميليا معنى كلماتها ، انها تهدد ، ولا بـــد من مهادنتها ، لو استطاعت أن تعتذر للخادمة وتسترضيها ، فإن ذلك معناه أن تكتم سر جريـــة البادري توما ، وفي نفس الوقت تغطي على خطيئتها وبعد ذلك تستطيع أن تتدبر امرها بهدوء ..

ـ « استير .. انا آسفة .. كلنا خطايا .. لحظـــة ضعف يا حبيبتي .. لقد شربت كثيراً ولم اتمالك إرادتي .. السكارى يفعلون أي شيء .. اما سمعت عن ذلك اليهودي الصالح الذي حاول ان يعتدي على عفاف ابنته اثناء سكره؟؟.. استحلفك بالله ان تصفحي عني .. »

ولم تكتف « كاميليا » بذلك بـــل زحفت على ركبتيها العاريتين ، واقتربت من الخادمة واختطفت يدها وقبلتها واخذت تتمسح في اذيال ثوبها .. وتقول :

ـ « مراد لك .. لقد وعد زوجي بذلك ، وسيدفع لكما

المال الوفير حتى تسعدا ، وإذا لم يفعل داود ذلك فأنا سأفعله بنفسي هذا وعد .. ولتغفري لي .. »

قالت استير في ارتباك والدموع تغرق عينيها :

ـ « عفواً سيدتي .. لقد انتهى الأمر وسأنساه كليـة .. وأرجو الا يترك في نفسك اي اثر .. »

وهب مراد واقفاً وقال :

ـ « لن ابقى هنا بعد الآن لحظة .. »

استدارت اليه سيدته قائلة :

ـ « انت تغامر بمستقبلك ومستقبل سيدك .. »

ـ « سأخرج .. »

وقفت كاميليا عاجزة لا تستطيـع ان تحسم امراً ، وخطا مراد صوب الدهليز المعتم متجهاً صوب الباب الصغير المفتوح.. وهمست استير :

ـ الى اين ..؟؟ »

ـ « الى الجحيم .. اكاد اختنق .. ليكن ما يكون .. »

وتبعته استير دون ان تتفوه بكلمة ، بينما نظرت كاميليا من حولها ، كانت وحيدة إلا من المخطوطـات القديمة وبعض نسخ التلمود والكتب المقدسة ، وصور متخيلة لبعض الحاخامات

الاقدمين، واشياء مهملة، وبعض الصراصير تجري هنا وهناك.. نظرت الى مـا حولها بحسرة وشعرت ان الحياة تافهة وان الايام تعسة لا معنى لها .. وأن ما يجري من احداث غريبة يكاد يورثها الجنون فألقت بوجهها على الأرض واخذت تنتحب بصوت عال ..

١٣

قال سليمان :

ـ « اجـــل يا جناب الباشا .. إن المتهمين السبعة الذين تحدثت عنهم ادخلوا « الاب توما » في منزل داود هراري.. ثم دعوني بعد الغروب بربع ساعة وقالوا لي : قم فاذبح هـذا « القسيس » كان الاب توما مربوط الذراعين .. فاعتذرت.. انا لا اقـدر على ذبحه .. ووعدوني بالدراهم ، اعتذرت .. ثم سلموني الاعلان الصغير الخاص بالمزاد .. الذي اعطاني الاعلان هو هارون هراري .. اتذكر الآن .. لقد قلت لكم ان داود هراري هو الآخر قابلني بعد ضبطي، عندما كنت منقاداً الى سراي الحكومة .. واستفسر مني عما اذا كنت قد اعترفت بشيء ام لا ، ولمـا اجبته بما يطمئنه .. اوصاني بالثبات .. ووعـدني بمكافأة كبرى .. ثم إن الذي استدعاني من حانوتي

للذهاب الى بيت هراري هو خادم داود واسمه مراد الفتال..»

نظر الباشا الوالي الى احد الرجال وقال :

ـ « استحضروا الخادم مراد الفتال .. »

واستمر التحقيق مع سليمان الحلاق .. « اتقول الحق يا سليمان ام انك تخاف الضرب وتتهم الأبرياء بالزور ؟؟ »

ـ « الحق ما قلت .. ومستعد لمواجهتهم .. ومصمم على كل كلمة .. »

ـ « اكان يوجد بالمنزل نساء اثناء الجريمة .. »

ـ « لم ارَ غير الرجال السبعة .. والخادم كان في الخارج .. »

ـ « من فتح لك الباب ..؟؟ »

ـ « داود هراري .. »

ـ « هل بقيت معهم بعد ان رفضت الذبح ..؟؟ »

ـ « ذهبت الى حانوتي .. ثم الى منزلي .. »

ـ « اكان يمكن سماع القسيس إذا صرخ وهو في الغرفة التي كان فيها ؟؟ »

ـ « المنزل محاط بمنازل اليهود من كل جهة ، والمتهمون كانوا يمنعونه من الصراخ .. »

– « هل كان خادم البادري معه .؟؟ »

– « الخادم مس في محل آخر.. والذين قتلوه كانوا متفقين على هذا الأمر مع من قتلوا الأب توما .. »

سيق مراد الفتال إلى التحقيق ، كان مرتبكاً زائغ النظرات ، لقد وجدوه لدى بيت داود هراري وأقر بأن سيده داود قد أرسله فعلاً لاستدعاء سليمان الحلاق ، وانكر معرفته بأي شيء آخر ، وزعم أنه عاد إلى بيته بعد استدعاء سليمان وقرر انه لم ير احداً من الرجال في بيت سيده ، ثم ووجه داود بكلام خادمه فأنكر وادعى انه ذهب إلى الجمرك في الوقت الذي يدعي فيه سليمان ومراد انه اتصل بهما ، غير ان شهادة ناظر الجمرك لم تأت في صالحه ، وبعد يومين اعيد استجواب الحلاق :

– « من اعطاك الاعلان الذي وجد على بابك ..؟؟ »

– « هارون هراري .٠ »

– « متى كان ذلك ؟؟ »

– «يوم الأربعاء ٤ ذي الحجة بعد المغرب بنصف ساعة.. وهارون أعطاني برشاناً للصق الاعلان وقد تم لصقه يوم الخميس عند الفجر.. دون ان يراني احد..انا اعلم ان البادري كان قد وضع اعلاناً يوم الأربعاء ، وقرأه بعض الناس ثم اختفى ذلك

الاعلان .. يبدو ان آل هراري هم الذين رفعـوه بدليل انهم اعطوني غيره كي ألصقه .. »

صمم باقي المتهمين على الانكار ولم يعترفوا بشيء ، كان قد مر على اختفاء البادري حوالي ثلاثة اسابيع دون الوصول الى صورة واضحة حقيقية للجريمة ، ورأى الوالي شريف باشا ان سليمان الحلاق لم يزل لديـه الكثير ليخبر به ، وخاصة انـه ترددت شائعات تقـول ان اليهود سيحاولون قتله ، كما وان اليهود أخذوا يحاولون خفية الاتصـال ببعض الشخصيات البارزة سواء من الأجـانب أو الوطنيين كي يسدل الستار على التحقيق .. وقال شريف باشا بعد ان استدعى سليمان :

ـ « ممن تخاف ..؟؟ »

نظر في توسل دون ان يجيب .. فقال الباشا :

ـ « اعلم يا سليمان انني أعـدك بشرفي ان اعفو عنك ، مقابل ان تقول الحقيقة .. حتى تدرأ الفتنـة عن الناس ، وتكشف الظالمين ، وتنجي الأبرياء ، لن تخسر شيئاً يا سليمان بل ستكسب الكثير .. »

واقسم الباشا على وعده وأعطـاه كتابـاً بذلك ، فقال سليمان الحلاق وهو يبكي :

ـ « أرسل داود خادمه مراد في طلبي بعد الغروب .. عندما ذهبت الى بيته رأيت هارون واسحاق ويوسف هراري

ويوسف لينيادو والحاخام أبو العافيـــة والحاخام سلانيكلي وصاحب البيت داود .. كان الاب توما مربوطاً يا الهي !! قالوا قم واذبح هذا القسيس .. احضر داود سكيناً .. أنا الذي القيت القسيس على الأرض..واشتركنا جميعاً في مسكه.. انا الذي وضعت رقبة القسيس على طشت كبير .. وأمسك داود بالسكين وذبحه وأكمل معه أخوه هارون .. لم تقع نقطة واحدة من دم القسيس خارج الطشت .. سكنت حركـات الضحية .. ثم سحبناه من حجرة الذبح .. الى حجرة أخرى فيها بعض الاخشاب ثم نزعنا ثياب القتيل .. وأحرقوها .. عندئذ حضر الخادم مراد الفتال وبأمر منهم قمت انا والخادم بتقطيـع القسيس إرباً إرباً كنا نضع قطعه في الكيس .. ثم نرميها في المصرف عند أول حارة اليهود، بجوار منزل الحاخام موسى ابو العافية ، ثم رجعنــــا الى بيت داود .. وانتهت المأمورية . وعدوا الخـــادم بأن يزوجوه من الفتاة التي يحبها بمالهم .. ووعدوني بالدراهم ثم توجهت الى منزلي .. هذا ما حدث.. وأنا لم أقل ما قلت إلا بناء على ما يرتضيه ضميري..»

كان الحاضرون وهم يستمعون الى سليمان في غاية من الدهشة والعجب ، وعلامات الاشمئزاز والتقزز تبدو على وجوههم ، وبعضهم دمعت عيناه : أيمكن أن يحدث ذلك فعلا ؟؟

قال الباشا لسليمان :

— « ماذا فعلتم بعظامه ..؟ »

ـ « كسرناها بيد الهاون.. ورأسه .... كسرناها بيد الهاون أيضاً .. »

ـ « وكيف فعلتم بأحشائه ؟ »

قال : « قطعناها وأخذناها في الكيس .. »

ثم سأل المحقق :

ـ « من اشترك في التقطيع ..؟؟ »

ـ « كنت انا والخادم نقطعه ، والرجال السبعة كانوا يرشدوننا الى الطريقة .. كان معنا سكين واحدة اتبادلها أنا والخادم .. وهي تشبه سكاكين الجزارين .. »

ـ « على أية بلاطة كسرتم العظام بعد تقطيع الأب توما؟»

ـ « على بلاطة موجودة بين المربعين » ..

ـ « لما كسرتم رأس توما بالطبع كان المخ يخرج منه فماذا فعلتم به يا سليمان ؟؟ »

ـ « نقلنا المخ مع العظام .. »

وهنا حدث شيء ملفت للنظر فقد صرخ احد رجال الشرطة الواقفين ، ثم أغمي عليه لهول ما سمع ، وعندما أفاق كان يشهق باكياً ، فأمر شريف باشا باخراج الشرطي ، كيما يستكمل التحقيق ، وبدا واضحاً ان علامات التأثر قد ظهرت

على وجوه جميع الحاضرين ، بمن فيهم ممثل قنصلية فرنسا والنمسا وانجلترا .. وقال شريف باشا بصوت راجف :

– « متى تمت الجريمة ؟ »

– « وقت العشاء .. »

– « كم استغرق تصفية الدم ؟؟ »

رد سليمان :

– « حوالى ثلث الساعة او نصفها وهي المدة التي بقي فيها القس موضوعاً على الطشت »

تنهد الباشا في ألم وقال :

– « الم يحدث شيء آخر يا سليمان .. »

– « كان الرجال السبعة يضحكون ويمرحون ويغنون ، بعضهم كان يرقص طرباً .. هذه الطقوس ضرورية كما في الديانة .. وكانوا يفعلون أشياء كثيرة ليزيدوا من ألم البادري توما .. وكان الرجل يئن ويتوجع بصوت حبيس لأنهم كمموا فاه .. وقالوا له « كن متألماً كما كان الناصري (عيسى) معلقاً على الصليب .. وليتحصل هذا العذاب لجميع أعدائنا » « هكذا كان يرددون »

ثم أجاب سليمان بعد ذلك على أسئلة فرعية كثيرة ، منها نوع الكيس الذي وضعت فيه قطع الجثة ، ومكان نزع ملابس الضحية ، ومَنْ نزعها ، ولون ملابس القسيس الخ .. ثم أُخذ

سليمان الى الحبس الانفرادي واستدعوا الخادم مراد الفتال وواجهوه بأن سليمان قد اعترف بكل شيء ووعدوه هو الآخر بالعفو ، فأدلى باعترافات كاملة تطابقت تماماً مع اعترافات سليمان الحلاق ..

وتوجه قنصل فرنسا بسؤال الى الخادم مراد :

— « ما منفعة الدم عند اليهود ؟؟ »

— « يستعملونه في الفطير .. »

— « كيف علمت ذلك ..؟؟ »

— « سمعتهم يقولون .. »

وقال الأميرالاي حسن بك ، أحد المحققين :

— « حيث ان اعتراف المتهمين لا يوجد فيه اختلاف فلنذهب مع الخواجة (بودين) « مترجم قنصلية فرنسا » والدكتور مساري ، لمعاينة المحل الذي حصل فيه تكسير العظام ثم نعاين المربع (الغرفة) الذي حصل فيه تقطيع القسيس .. والمصرف الذي القيت فيه الجثة ، ولنأخذ معنا المتهمين ليدلونا على هذه الأماكن كل منهم على حدة ، ولنبحث عن مكان تحويل المياه الجارية في ذلك المصرف عن مجراها الأصلي حتى يمكننا ان نجد البقايا التي رميت فيه .. »

فوافق الجميع على ذلك ...

ودمشق لا يخفى عنها شيء ، وللحيطان – كما يقولون – آذان ، إذ سرعان ما انتشرت وقائع الجريمة المروعـــة ، وضرب الناس كفاً بكف ، وهم بين مصدق ومكذب ، قد يشذ رجل او اثنان أو ثلاثة ويتصرفون كالحيوانات في لحظة من لحظـات الضعف الانساني ، او الجنون ، أمـا ان يجتمع هذا العدد من الرجال المتدينين والمثقفين ، ويقوموا بهذه الفعلة الشنعاء ، وعلى هذه الصورة المثيرة ، فأمر لا يصدقه عقل .. ولكم اثارت هذه الصورة الذعر في نفوس الأطفال والامهات بحيث لا تكاد ترى طفلاً إلا وهو في يد امه او ابيه..واليهود لجأوا الى ديارهم ، وكثيرون منهم هربوا خـارج دمشق ، ولم يعد للمدينة حديث غير قصة الاب « توما » الذبيـح ، وخادمه المسكين إبراهيم عمار .. واستطاع بعض الشعراء الشعبيين أن يؤلفوا مواويل يرددها الناس في كل مكان .

١٤

استطاع سليمان ومن بعده مراد الفتال ان يرشدا عن مسرح الجريمة ؛ هنا البلاطة المشؤومة التي كانت العظام تدق عليهـا بيد الهاون ، هنا المكان الذي قطع فيه اللحم إرباً إرباً ، هنا ذبحوا البادري ، هنا خلعوا عنه ملابسه ، هنا كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون كي تكتمل الشعـــائر الدينية بصورة

شرعية ، هنا آثار دم على الحيطان .. وأخيراً هنا قذفوا بلحم وعظـــام الضحية ، واستطاعوا ان يستخرجوا بعض العظام واللحـــم ، وكذلك قطعة من طربوش البادري ، وأرسلت العينات الى الباشا حيث تسلمها قنصل فرنسا ، وعرضت بقايا الجثة والعظام على لجنتين إحداهما من أطباء الافرنج ، والأخرى من الأطباء العرب المسلمين والمسيحيين ، وأما بقايا الطربوش فقد عُرضت على الحلاق الذي كان يحلق عادة للبادري ، أقر الاطباء ان العظام والبقايا بشرية وليست حيوانية ، كما أعطى الحلاق مواصفات لطربوش البادري ، وقدم ادلة مقنعة على أن الجزء الموجود من الطربوش هو للبادري نفسه ، لم يخف امر اكتشاف الجريمة على اليهود المحبوسين في سرايا الحاكم ، كل منهم اخذ يفكر في معجزة تنقذه. اغلب افكارهم تدور حول اليهود في الشام وأوروبا ... انهم يستطيعون ان يدفعوا الامـــوال لانقاذهم او يبعثوا بكبار الشخصيات العالمية ليتوسطوا لهم .. يجب الا ينتظروا اكثر من ذلك .. أما الحاخام موسى أبو العافية فقد جلس في زنزانته حزيناً قلقاً ، لم يكن يفكر في انقاذ نفسه بهذه الطريقة ، بل كان يفكر ، هل ينقذ نفسه أم يبحث عن الحقيقة ؟؟ أكان أولاً على صواب أم كان مخدوعاً؟؟ إنه رجل دين بل يطلقون عليه « العاقل » .. هو الذي تسلم الزجاجة التي جمعوا فيها دم الذبيح ، أخذها بنفسه وأعطاها الى ربي ديانة اليهود في الشام كلهـــا الحاخام الأكبر يعقوب العنتابي الرأس المدبر للجريمة كلها ، أبو العافية أخفى الزجاجة

المليئة بالدم تحت ثيابه ، ثم سلمها للحاخام العنتابي وهو جالس في مكتبته الخاصة ، قال له العنتابي :

– « سوف نصنع الفطير المقدس ، وسنرسل جزءاً منه الى بغداد ، يهود العراق يريدون ذلك ، وقد حدثت مكاتبة بهذا المعنى . »

ابو العافية يذكر تفاصيل ذلك كله .. يذكر اجتماعه مع العنتابي ، ولقاءاته المتكررة مع آل هراري ، ورسم الخطة لجر القسيس توما الى حتفه ، الحادث يدور في ذهن الحاخام ابو العافية كشريط طويل مرتبط المشاهد ، ويتساءل ابو للعافية لم كل ذلك ؟؟ انه سؤال وجيه ، الاخطر من ذلك كله هل ورد شيء من هذا في التوراة ؟؟ مستحيل ان تطلب التوراة المنزلة من عند الله ذبح المسيحيين لسبب بسيط هو ان المسيحيين لم يكونوا قد وجدوا بعد ، إذن هذه العقيدة الفاسدة مختلقة من اساسها ، ابتكرها بعض الحاخامات او الاحبار الحاقدين او المجانين .. بالتأكيد !! واذا كان امر كهذا يبتكرونه ابتكاراً فكيف ببقية العقائد والتشريعات التي يمتلىء بها التلمود؟؟ وساءل الحاخام ابو العافية نفسه في زنزانته : ألا يوجد تفسير واحد معقول لهذا التقليد الدموي الرهيب؟؟ أخذ يحك لحيته ورأسه .. نحن نختلف مع المسيحيين حقاً ، وننكر نبوة المسيح وألوهيته، ونفتخر بأننا رتبنا مسألة صلبه، ونؤمن أيضاً بأن المسيح الحقيقي الذي نؤمن به، سيأتي يوماً ما

ومعه الفرسان على خيول وجمال لينقذونا ، وليحققوا ملك إسرائيل الكبير من النيل الى الفرات ، ويعيدوا بناء اورشليم الخراب التي نبكي عليها من قديم .. ألا يمكن أن نكون مخطئين ؟؟ ألا يجوز أننا نكره المسيحيين لأسباب تافهة أو لمجرد مجيء المسيح بتشريعات ووصايا تختلف عما كتبه الأحبار والحاخامات ؟ إن الهوى والتعصب إذا دخل عقائد المتدينين، انزلقوا الى متاهـــات خطرة وأتوا بأشياء عجيبة لا تمت الى الديانة بصلة .. انا لم اسمع ان المسيحيين يسفكون دم احد ممن يخالفونهـــم في الدين اعتماداً على عقيدة لديهم ، ولم اسمع عن المسلمين انهم يغدرون او يقتلون اصحاب الديانات الاخرى او يمزجون دمهم بدقيق الفطير ، انني لا افكر في ذلك هرباً من مجابهة الموت او جبناً من التصدي للقضية التي أُحـاكم فيها ، ليت إيمـــاني بما فعلت كان قوياً ، اذن لقلت ما اعتقد انه الصواب وليكن ما يكون ..

يجب ان اعرف الحقيقة .. انا الحاخام موسى ابو العافية الذي يبصر الناس بالحقيقة ، ويبشرهم بديانة موسى ، وهـو لا يعرف الحقيقة ، ولم تصل اليه ديانـة موسى نقية خالية من الشوائب .. يجب ان اعرف الحقيقة اولاً .. وسيان عندي بعد ذلك ان اموت او تبرأ ساحتي واعود الى الحياة ..

ليكن هذا الحادث زلزلة كبرى هزت جسدي ومشاعري وقلبي ، كي افيق وابحث عن طريق الحق... ثم خطا الحاخام

ابو العافية في حزم صوب باب الزنزانة والليل دامس صامت، ودق الباب بيد قوية فأتى الحارس :

ـ « ماذا تريد ؟؟ »

قال : ـ « انا الحاخام موسى ابو العافيــة .. أريد بعض كتب الإسلام والمسيحية .. »

لم يفهم الحارس مــــاذا يريد الحاخام بالضبط ، وهل هو يمزح أم يقول الحق،أم ترى اصابته لوثة ؟ وما اكثر ما يحدث ذلك بالنسبة للمسجونين الذين لا يطيقون وحدة الحبس وظلامه القاتل ، فهتف الحاخام في ضراعة : « قل لرئيسك ذلك .. »

هز الحــارس رأسه ومضى الى رئيسه الذي اتصل بدوره ببعض الكبار المتصلين بشريف باشا الوالي ، وتم للحاخام في اليوم التالي ما أراد ، جلس يقرأ ويقرأ وكان يقارن ما يقرأه في الديانة المسيحية والاسلام بمــا قرأه طوال السنين الفائتة في التلمود « لماذا لم أفعل ذلك منذ زمن طويل ؟؟ »

ثم طلب أحد العلماء المسلمين ليستفسر منه عن بعض القضايا التي تعذر عليه فهمها في الشريعة والسيرة والنبوية .. فأحضروه اليه ، قال الحاخام أبو العافية للشيخ :

ـ « رفاقي يريدون ان يخرجوا من هذا السجن الصغير أما انا فأريد الخروج من السجن الكبير .. »

هز الشيخ رأسه قائلا :

ـ « ماذا تقصد بالسجن الكبير ؟؟ »

ـ « خرافات التلمود التي دبجها الحاقدون ، وعشت في متاهها سنين طويلة ، دون ان اسمح لنفسي بمعارضتها ، او مجرد مناقشتها .. أيها الشيخ .. كيف اخرج من هذا السجن الكبير ؟ »

قال الشيخ ووجهه يشرق نوراً :

ـ « ليس بينك وبين الحرية سوى كلمة واحدة .. »

قال الحاخام :

ـ « ما هي ..؟؟ »

رد الشيخ :

ـ « لا اله الا الله محمد رسول الله .. »

دار الحاخام بنظراته فيما حوله ، نظر الى السماء الزرقاء.. كان هناك طائر ابيض يشق أجواء الفضاء ، ثم صوت مؤذن ينادي بصوت مؤثر « الله اكبر الله اكبر » يا لها من صدفة عجيبة ! ولأول مرة يشعر الحاخام ان افراحاً قدسية تعزف في قلبه وروحه أنشودة شجية وتمتم :

ـ « ايها الشيخ حدثني عن الله .. »

قال الشيخ :

ـ « ليس كمثله شيء .. عادل بر رحيم .. بارىء الأرض والسماء سميع عليم .. »

وتساءل الحاخام :

ـ « يقول التلمود إن الله يبكي من اجـــل ابناء اسرائيل المعذبين .. »

ابتسم الشيخ قائلاً :

ـ « ما شاء الله ايها الحاخام .. انه سبحانه وتعالى قوي عزيز .. وكلنا لآدم .. وآدم من تراب .. »

وتمتم الحاخام :

ـ « أيها الشيخ حدثني عن الله .. »

رد الشيخ :

ـ « يقول:إن اكرمكم عند الله أتقاكم .. ويقول:ومن قتل نفساً بغير نفس او فساد فيالأرض فكأنما قتل الناس جميعاً..»

ترقرقت الدموع في عيني الحاخام وقال :

ـ « زدني .. زدني .. »

رتّل الشيخ بصوت رقيق :

ـ « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً .. »

ـ « وعن اليهود ماذا قال ..؟؟ »

ـ « قال الكثير .. وقالت اليهود نحن ابناء الله وأحباؤه الخ .. »

بكى الحاخام بدموع غزيرة وهو يصيح :

— « ويحي .. ويحي .. كيف لم افكر وانا اخوض بحار الضلال ؟؟ »

وقال الشيخ :

« تلك مشيئة الله .. فلتنظر من جديد ، والمؤمن يرى بنور الله .. الكلام كثير .. وتستطيع ان تَرِدَ المنهل العذب بنفسك .. فترتوي من الحقيقة العذبة .. ولتعلم أيها الحاخام ان الله يقول « آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لا نفرق بين أحدٍ من رسله .. »

وقف الحاخام وضم الشيخ الى صدره وقال في توسل « اين الطريق ؟؟ »

قال الشيخ « انزع نفسك بقوة من ماضيك العفن، وتخلص من أوزار الأيام التعسة .. ولتلق الله بقلب جديد .. وفكر جديد .. » صاح الحاخام « .. الحرية .. »

قال الشيخ : « قلت لك ليس بينك وبينها سوى عبارة قصيرة المبنى .. كبيرة المعنى .. »

تطلع الحاخام صوب السماء ونادى بصوت يخالطه البكاء :

— « أشهد الا اله الا الله ، وان محمداً رسول الله .. »

— « بشراك ايها السعيد ... نلت مناك ... »

١٥

انهالت الاعترافات ، حاول الحاخام سلانيكلي ان ينكر، لكن كيف ينكر التهمة وقد اعترف الحلاق والخادم وآل هراري جميعهم ويوسف لينيادو كما وجدت بقايا الجثة ، ومكان الجريمة وأكدت كل الشواهد والقرائن على ثبوت التهمة ، كما حضر التحقيق الوالي نفسه ، وقناصل الدول وخاصة فرنسا والنمسا وانجلترا ، ثم اعلن الحاخام موسى ابو العافية اسلامه وتسمى باسم « محمد افندي ابو العافيه » وكان اسلامه ضربة قوية للتجمع اليهودي وللمخطط الصهيوني ، الذي يسيرون عليه ، إذ ان اسلامه يعني الاعتراف بالجريمة ، والنفور منها ، وإظهار الديانة اليهودية بمظهر يسيء الى الانسان وكرامته ، والى تلك العقيدة ، وأخذ الناس يناقشون سر فساد اليهود ، أهو لطبيعة موروثة فيهم ؟؟ أهو بسبب هذه التعاليم التي اخترعها طائفة من الأحبار الحاقدين وتربت عليها الأجيال لقرون عديدة ؟؟ أم هو الطمع اليهودي الذي يريد ان يستغل الناس ، ويستولي على مقدراتهم ، وينظر الى غيرهم من الأمم « أبناء نوح » كما يقولون علىانهم دونهم من حيث الفكر والروح ووظيفة الحياة ؟؟ ام لهذة الأسباب مجتمعة؟هذا الجدل الحامي الذي ساد أنحاء دمشق والشام ، انتقل الى شوارع القاهرة وبعض المجتمعات الاوروبية،الجميع آمنوا بأن هؤلاء المخدوعين عنصر فساد ، وأداة بغض ، ورمز انحراف وضلال ، وان

وجودهم خطر على البلاد التي يعيشون فيها ، وجرت اتصالات كثيرة وعلى أعلى المستويات لإثنـــاء الحاخام ابو العافية عن اعتناقه الإسلام، وبذلت له الوعود الخلابة أحياناً،والتهديدات أحياناً أخرى لكن الرجل أبى ان ينحاز الى الضلال ، وقال في ثقة : « لم يبق لي من العمر الا قلة وتجربتي الطويلة اثبتت فساد ما كنت مقيماً عليـــه من عقائد ، إن الفكر هو سيد الموقف ، وانا ارى واسمع واقرأ واناقش ، دون التزامـات مسبقة او انتماءات قديمـة ، وقد وجدت ان الاسلام هو الدين الحقيقي ، ولا يهمني وقد وصلت الى الحقيقـة ، ان يحكم عليّ القضاء بالموت او يطلق سراحي ، ولا ابالي اسخط اليهود او رضوا ، خسرت الملة اليهودية ام كسبت ، ان مـا افكر فيه هو الحقيقة ، وقد نزعت العصابـــة السوداء من فوق عيني ، وانطلقت الى عالم الحقيقة ، حيث الحرية والنقـاء والإخاء .. حيث الايمان الذي لا لبس فيه ولا غموض ولا انحراف ، قال شيخي المؤمن الجليل : «إن الاسلام يَجُبّ ما قبله» . وهأنذا اولد من جديد برغم شيبي وممارستي للطقوس الرهيبة في الليالي الحالكة السواد .. نظرات البراءة في عيني القسيس تومـــا تؤرقني .. دمـــه النازف يصرخ بي .. كنت اراكم يا معشر اليهود كالذئاب الجائعة وقد انقضّت على الفريسة ، واذا كان للذئب عذر في ان الفريسة هي طعامه، ومن حقه ان يلتهمها،

فماذا كان عذركم ؟ الفطيرة المقدسة ؟ يا للمهزلة !! وما يحويه الفطير من أسرار غريبة وتأثير سحري ؟؟ يا للخرافة !! لن يعود الشباب يا داود .. ولن تنتصر أيها الحاخام العنتابي وتسود العالم ، ولن تكسب الملايين يا هارون ولن تدخل الجنة يا يوسف لينيادو .. أيها الحمقى المخدوعون .. »

وجلس الحاخام أبو العافية ، أعني محمد افندي أبو العافية، يسطر للوالي شريف باشا هذه الرسالة التي ما زالت مخطوطتها باقية . التاريخ يوم الثلاثاء في ٧ محرم سنة ١٢٥٦ هجرية ، صورة تقرير محمد افندي أبو العافية المحرر بخطه مرفوع للأعتاب الشريفة :

« حيث صدر الأمر الكريم ، نحرر الذي نعلمه في قضية قتل البادري توما ، وبما أني قد صرت من المؤمنين بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، يلزمنا أن نقول الحق .. ان الحاخام العنتابي « ربي » ديانة اليهود في الشام ، تكلم معنا قبل الجريمة بعشرة أو خمسة عشرة يوماً.. وقال انه يلزم له دم ، كما اوصت الديانة اليهودية ، وقد اتفق مع داود هراري واخوته على تنفيذ ذلك في منزلهم .... الخ»

واستطرد محمد افندي أبو العافية في خطابه الطويل بلغة عامية ركيكة يصف تفاصيل كل ما حدث الى ان قال في آخر خطابه : « والدم المطلوب عند اليهود لأجل الفطير الذي يصنعونه يوم وقفة عيدهم .. وقد فعل اليهود ذلك اكثر من

مرة وقبض عليهم وسيقوا للحكـّام .. وهذه القضايا مذكورة في كتاب يتداول بين اليهود اسمه (سفر دهدوروت) حيث يزعم هذا السفر أنها تهمة باطلة .. ولا شك ان القضية المطروحة الآن تظهر الحقيقة جلية » .

الآن عبدكم مستجير بالله تعالى ورسوله سيدنا محمد ، وقد هدانا الله الى دين الحق آملين العفو من مراحم دولتكم والأمر لمن له الأمر .. أفندم

توقيع
محمد مسلماني
(الحاخام موسى ابو العافية سابقاً)

وعقـد مجلس كبير حضره شريف باشا وقناصل الدول والمحققون وحدثت مواجهة بين محمد أبو العافية وربي ديانة اليهود بالشام الحاخام العنتابي، المحرض الأول على الجريمة وكانت هذه الجلسة من نوع فريد ، فقد أحضر ابو العافية كتباً يهودية، وأسفاراً وشروحاً قديمة وأخذ يستخلص منها العقيدة اليهودية المحرفة ، ويعرضها أمام الحاضرين ، ثم يناقشه فيها العنتابي ، ويوافق عليها ، وقد يزيد في شرحها . كما تقدم الكثيرون من الحاضرين ببعض استفسارات وأسئلة كثيرة أجـاب عليها العنتابي وأبو العافية ، وسجلت كلها في محضر الجلسة ، ووقع

الحاخامان بالعلم والموافقة ، مذكوراً فيها المراجع والصفحة ورقم المقطع بصورة أذهلت الحاضرين من رجال الدول الأجنبية ، ومما قاله العنتابي :

- « أن كتب اليهود عادة تذكر في مقدمتها أن الكلام يختص بالدول القديمة منذ آلاف السنين ، وفي ذلك خداع للناس وتعمية الأمر عليهم ، والمقصود منها عدم إثارة المشاكل ، والتمكن من طبع هذه الكتب في أوروبا ، حتى لا تلفت نظر المسيحيين هناك ، وفي معرض الحديث عن بعض الاماكن البيضاء في كتب اليهود والتي لا تكتب فيها كلمة أو عبارة ، شرح الحاخامان أن المقصود من وراء ذلك ، حذف اسم المسيح والمسيحيين ، وهذا عرف متفق عليه بين علماء اليهود ، فهم يستطيعون قراءة هذه الفراغات لكن غيرهم من أصحاب الديانات الاخرى لا يعرفون .. »

وكانت هذه الاعترافات عن العقائد المنحرفة الغريبة في الديانة اليهودية ، أخطر بكثير من الاعترافات الخاصة بمقتل الأب توما وخادمه ، وهذا ما أزعج الجالية اليهودية في الشام ، بل في اوروبا ايضاً إذ تحركت جمعية الاتحاد الاسرائيلي في اوروبا بسرعة مذهلة ، لوقف التمادي في هذه الكارثة ، ولم يكن اول طلباتهم الا التوقف عن البحث في ديانة اليهود ومعتقداتهم ، وحذف ذلك كله من محضر الجلسات ، وكذلك فعل اليهود المقيمون في الشام وبغداد وغيرهما من الدول العربية

وممتلكات الدولة التركية على السواء ..

هكذا اكتملت عناصر الجريمة فكراً وتنفيذاً ، وتعرى اليهود من فكرهم ودهائهم ، ولم يعد هناك على الاطلاق محل للرد العلني او الافلات بطريقة قانونية من المأزق الخطر الذي سببته قضية مقتل البادري توما وخادمه ابراهيم عمار ...

وفرك « سانتي الصيدلي » صديق الأب توما يديه في غير قليل من الرضا وقال :

— « دم البادري لم يذهب هباءً وقد حانت ساعة القصاص .. وهذا يشفي نفوس المحزونين » .

١٦

ارتدت ملابسها السوداء، ووضعت خماراً شفافاً على وجهها الفاتن ، واخذت معها بعض الخدم ، وانطلقت الى سراي الحاكم تريد ان ترى زوجها في زيارة خاطفة، ولم تمتنع السلطات المختصة عن اعطائها ترخيصاً بذلك ، وحينما جاء اليها زوجها، كان كالهيكل العظمي ، تكسوه جلود شاحبة ، وكانت عيناه غائرتان تفيضان تعاسة والماً ، هتفت في حزن « داود » .

— « كاميليا .. لشد ما تشوقت اليك !! »

— « أراك مريضاً .. »

— « لقد تضعضعت تماماً يا حبيبتي .. لم أعد احتمل .. »

نزلت دموعها في صمت ، نسيت كل شيء في ماضيها المضطرب ، كان داود تمثالاً مجسماً من البؤس والشقاء وتمتم : « اني لا ارى معنى لحياتي المحطمة ، ليتني أموت .. »

— « لا تقل هذا الكلام .. »

— « انا رجل تقدمت بي العمر ، ومن الحمق ان اكذب وادعي الشجاعة .. »

— « لكل شيء نهاية يا زوجي » .

— « لشد ما أخاف هذه النهاية يا كاميليا » .

وهز رأسه في أسف ولمس يدها في امتنان ، ثم قال :

— « ما معنى ان يقضي الانسان سنواته الأخيرة هكذا ؟؟ إن رجلاً مثلي لم يخلق لعناء كهذا ، انني أبحث عن العزاء فلا اجده .. كل شيء حولي يجلله السواد .. المستقبل كالح الوجه ، ذهبت نضرة الحياة وحلاوتها .. آه .. كلما فكرت فيما حدث اعجب من نفسي اشد العجب ، لم يكن لكل ما جرى مبرر حقيقي .. ليست المسألة دماً وفطيراً مقدساً .. هنا في قلب الانسان تكون التقوى او يكون العناء . » أمسكت بيده في شدة وضغطت عليها في ثقة :

ـ « كن متماسكاً ، لا يصح ان يتزعزع ايمانك ... »

ابتسم في مرارة : « ما زلت وسأظل اليهودي الصالح ، لن اتخلى عن ديانتي ، انا قوي الايمـان لكني واهن الجسم .. حزين الفؤاد .. »

ثم التفت اليها « هل أحضرت شيئاً من شراب .. »

ـ « وطعام ... ايضاً .. »

ـ « لا اريد طعامـاً ، صبي كأساً من نبيذ ، وهـات التبـغ .. » تنهد في حسرة وهو يتناول منها الاشياء ، ثم قال « كيف اولادنا ؟ انهم لا يفارقون خيالي لحظة .. »

ـ « أرسلتهم بعد الحـادث الى اقاربهم في بيروت .. ولم يعودوا حتى الآن .. هم بخير .. »

سعل ، ثم نظر اليها في تقدير « ليس لدي شيء أخـاف عليه سواكم .. وليس لي في الصبر باع .. »

قالت في تلعثم « اليس هناك من وسيلة للخلاص .. »

ـ « الأمل في قلبي لا يموت ..؟؟ »

ـ « لِمَ لا تفعل شيئاً حاسماً لتنجي نفسك ..؟؟ »

كان ذكياً لا يفوته التلميح ، وابتسم في مضض وقـال : « افهم ما تريدين قوله ، تريدين ان افعل ما فعله الحاخام ابو العافية » .

قالت كاميليا في حرج : « نحن لا نفكر الا في نجاتك ».

— « مستحيل ان افعلها » ومال عليها هامساً :

— « اوروبا تحركت .. ولن يتركونا نضيع سدى .. »

— « لم اعد اثق في احد يا داود ، ما المانع في ان تعتنق الاسلام ظاهرياً ، وتفعل فعـــل اليهود ؟؟ ألا تذكر يهود « الدونما » في تركيا ؟ ألا تذكر آباء لنـا أقدمين في ايام مجد الاسلام ؟؟ كلهم فعلوا ذلك ، وبقوا يهـود مخلصين .. لم اعد افكر في احد سواك .. »

تمتم في حسرة : « اني اتعذب عذاباً مهولاً .. لا انام الليل تلهبني الأفكار القاسية ، لكني لن أحيد شعرة واحدة عن ديانتي.. هناك شيء اسمه الكبرياء .. وهناك شيء اسمه الأمل في ان يعود المجد القديم .. لا تنظري الى حالنا السيء هنا .. هناك في الخارج يهود حقيقيون يسيرون دفة العالم ، ويمسكون بأزمة المال ، ويحركون السياسة .. انهـا لصفقة خاسرة اذا انا غامرت بترك يهوديتي .. »

وكاميليا من عادتهـا ان تقف عاجزة امـام منطق زوجها داود وصلابته ، لا تستطيع في يوم من الأيام ان تفند دعاويه، او تخطـّيء رأيه ، التفكير الجـــاد يرهقها ، تكره الصراع والمقاومة في مجال الرأي، وتكتفي بأي شيء ، وتؤمن سريعاً بقول محدثها متى رأت فيه الاصرار ، ووجدت لديه المنطق

والحجة ، اية حجة .. همست في حيرة : « لماذا نعيش ؟؟ »

ــ « اجيبي انت يا كاميليا » .

ــ « لننعم بالحياة .. »

ضحك ضحكة مرة وتمتم :

ــ « أنا لم أنعم بالحياة قط» الذهب في يدي وأريد المزيد.. الطعام كثير .. وأحلم بشيء آخر ، لديّ البنات مع البنين لكني أشعر بالحاجة والفقر .. أنفق احياناً عن بذخ .. ولا استسيغ لذة في ذلك.. ما معنى ذلك يا كاميليا ؟؟ نعيم الحياة ليس هو مصدر السعادة ، وظني ان ممارسة الحياة هي السعادة. ان احيا وافكر وامرض ، واشفى ، واشبع واجوع.. واتعب واستريح .. تلك هي السعادة .. هذا ظني .. »

لم تفهم كاميليا شيئاً ، التصقت به ضمته اليها في حنان بالغ ، شعرت بنتوءات عظامه تغوص في لحمها الطري ، تألمت في عمق ، احزنتها حـــالته التعسة ، وتدهوره البشع ، أي عذاب بعد ذلك ؟ تمتم في انفعال :

ــ « اذا انا مت فلا تحزني كثيراً .. اعرف ان النصح في مثل هذه الامور لا يفيد ، لكني اقولها لك صادقاً .. عودي الى الحياة وانتصري على سخافاتها .. كوني انت الام والاب للأسرة . »

عادت الدموع الى عينيها :
ـ « لا تفكر في امر كهذا يا داود .. »

رد في حسرة :

ـ « يا إلهي .. اني اتخبط .. يبدو انني لا احسن الكلام في هذه الأوقات .. » جفف لها دموعها وربت على كتفها وقال :

« القتل في كل وقت .. وكل مكان ، لست ادري لماذا هذه الضجة كلها من اجل البادري ؟ بالأمس اهلكت الحرب الكثيرين ، مات رجال .. وأطفال .. وقساوسة .. وشيوخ ويهود .. هل القتل الجماعي مباح وحده ..؟؟»

نظرت الى زوجها في دهشة ، إن كلماته عجيبة ، يبدو ان تفكيره قد اختل ، أيريد ان يرتكب الناس جرائم القتل دون حساب أو عقاب .. »

قالت مستغربة : « هل لو قتل أحد من عائلة هراري .. أكنتم تسكتون ..؟؟ »

ضحك داود في بلاهة وقال : « بالطبع لن نسكت فرجل من ابناء هراري يختلف عن أي رجل آخر .. »

ـ « لكننا امام القانون سواء .. »

ـ » انه قانون ظالم .. »

ـ « كيف ؟؟ »

ـ « لقد خلقنا الله أسياداً وحكاماً للعالم ، والله في سمائه يبكي من اجلنا ويذرف الدموع حتى .. »

قالت في شيء من القلق : « كف عن هذا الكلام الآن يا داود .. »

نظر إليها قائلاً :

ـ « يوسف هراري يحتضر .. ويوسف لينيادو مات بالامس من شدة المرض.. مات البادري فليذهب الى الجحيم.. وأسلم أبو العافية ، العار كل العار له .. وأفشى سرنا مراد وسليمان عليهما اللعنة الأبدية .. سننتظر المسيح الحقيقي القادم هو وفرسانه راكبين الإبل والجياد وبكاؤنا على أرشليم الخراب سيظل مستمراً حتى .. »

وقالت مقاطعة : « ويحك ! العسكر ينظرون اليك .. »

وجاءهما صوت الحارس « انتهت الزيارة ... »

نظرت اليه في حسرة ، وجرت حطامها ، وعادت الى الطريق ، دمشق تعج بالحياة ، والناس البسطاء يمرحون ويأكلون ويشربون،والاغنيات الشعبية ــ برغم مسحة الحزن ــ تعمر الطريق ، ضحكات تشق عنان السماء .. ورجل نصف عار يتغنى بمدح الرسول ، وصبايا في الشرفات يرددن أهازيج

الحجيج .. ومئذنة عالية تسمو صوب السحاب وعليها رجل يؤذن للصلاة .. وكنيسة أجراسها تدق، ومزاد علني يرتفع فيه صوت الدلال ، والعالم يسير ، واطفال صغار يجليسون في شمس الشتاء الساطعة يقرأون في المصاحف .. الكتب المقدسة في ايدي الاطفال ، يا إلهي .. لا اسرار ولا غموض .. الدين للجميع .. ليس هناك اسرار مخبأة في دهاليز مظلمة، وليست هناك طقوس خاصة بالأحبار الكبار او الحاخامات العظام .. المصحف يقرؤه الصغير والكبير ، أكان ابو العافية على حق حينما اعتنق الاسلام ؟؟ هذا ما كانت تفكر فيه كاميليا وهي تدلف الى حارة اليهود ..

كان احد اليهود يقترب منها وهي تمشي في الحارة ويقول: « كيف حاله ؟ »

همت ان تقول لهم انه في اسوأ حال، وانه نصف مجنون، لكنها ضحكت ساخرة ، وقالت شيئاً آخر، قالت في اعتزاز: « داود كالجبل الأشم .. ايمانه اقوى من ايمان الحاخامات العظام » ولجأت الى حجرتها فور وصولها، وهربت من الحقيقة المرة الى النوم العميق ، ولم تفق الا في اليوم التالي ، حينما جاءت اليها الخادمة استير وقالت :

— « سيدتي .. اني راحلة .. » نظرت كاميليا الى استير ، كانت تحمل في يدها صرة ملابسها وترتدي ثيابها الكاملة ، وتمتمت : « الى اين يا استير ؟؟. »

ـ « سأذهب اليه .. انه ينتظرني .. وسأرحل معه الى مكان آخر ، لم يعد لنا عيش في هذا المكان » .

كانت آثار النوم عالقة بأهداب كاميليا ، ومع ذلك فقد فهمت بعض ما تقصده الخادمة ، وتساءلت :

ـ « من الذي ينتظرك ؟؟ »

ـ « مراد .. »

ـ « كيف ..؟؟ انه في السجن .. »

ـ « لقد صدر العفو عنه هو وسليمان الحلاق .. وغادرا السجن .. »

قالت كاميليا وقد وثبت من سريرها : « وداود .. ما مصيره ؟؟ »

قالت استير متلعثمة « وتم العفو عن ابو العافية .. »

ـ « وداود ؟؟ »

طأطأت استير رأسها .. ولم تنطق .

ـ « تكلمي يا استير .. »

ـ « لا أعرف .. غير انهم قالوا أن يوسف هراري مات بالسكتة القلبية .. »

ووقفت كاميليا شاحبة ، وقالت :

ـ « هل مات داود هو الآخر ..؟؟؟ »

ـ « لا إنه حي .. بكل تأكيد .. »

ـ « لم لا تقولين ذلك منذ البداية ؟؟ »

وسادت فترة صمت قالت استير بعدها :

ـ « انا لا اتخلى عنك يا سيدتي ، لكن الرحيل أمر ضروري.. هكذا يريد مراد الفتال.. والخير في ان نرحل..»

١٧

عاد محمد أفندي أبو العافية (الحاخام ابو العافية سابقاً) الى بيته ، كان يمشي في حارة اليهود مرفوع الرأس وكانت النظرات المسددة اليه كأنها سياط حارقة تلهب جسده ، ومعاني الحقد تنصب عليه من كل جانب ، ولم يجرؤ أحد من اليهود أن يرفع صوته بكلمة .. لكن الأمر كان مختلفاً تماماً عندما بلغ بيته .. اجتمعت الاسرة من حوله ، كانوا فرحين بنجاته ، قلقين مضطربين من أجل ما حدث، وكان هو يدرك صعوبة الموقف .. وتبادلوا العناق والقبلات ، وقال ابنه بعد فترة وجيزة ..

ـ « يا ابي كيف تركت الديانة ..؟؟ »

قال ابو العافية في ثقة : « لقد اخترت طريقي .. وأنا لم

اترك الديانة لأسقط في فراغ، ولكني تدينت الديانة الحقيقية حسبما اعتقد الآن ... »

رد الابن : « لندع الحق والباطل الآن .. المهم سمعتنا وشرفنا بين اليهود ... »

ابتسم محمد افندي ابو العافية وقال : « أمام الله في الآخرة .. سوف نقف فرادى ، لن يحمل أحد عن احد عقابه ، ولن يشفع حاخام لرجل او امرأة من اتباعه .. بل سيتحمل أوزاراً على أوزاره ، دون ان ينقص ذلك من اوزار تابعه .. فلتمت كل السخافات القديمة التي افنيت فيها عمري.. ايها الابناء .. من اليسير ان يضحي المرء بنفسه ويتقبل الموت بشجاعة ، وقد كنت على وشك ان افعل ذلك ، لكن يجب ان تدركوا ان الشجاعة الحقيقية هي ان تنتزع نفسك من عفن الماضي الذي درجت عليه، الشجاعة ان تختار ، والجديد دائماً يبعث على الشك والخوف .. لكي تكون مسلماً لابد ان تكون حراً شجاعاً ، عندئذ تصل الى الجنة الحقيقة .. »

ثم اخذ يخاطب افراد بيته واحداً واحداً ، حتى الأطفال كان يحادثهم ، لم يجب احد ، وقفوا صامتين حائرين ، عندئذ قال :

— « انا لا افكر في الشكليات والمظاهر التافهة .. لا يهمني ما يقوله اليهود او غير اليهود .. القضية قضيـــة حق .. او باطل .. خطأ او صواب .. وانا اخترت مـا اعتقد انه حق

وصواب وليكن ما يكون .. ذلك جوهر الأمر كله ... »

ثم نظر اليهم مرة اخيرة ، وقال عبارة جامعة فاصلة :

— « يا اهل بيتي.. لسوف اغادر حارة اليهود الى الأبد.. ساغادر حارة اليهود.. أتفهمون؟ ومن اراد منكم ان يتبعني.. فليتبعني .. وسأعيش هناك ، الى جوار المسجد الأموي العريق .. وعندما يؤذن المؤذن للصلاة ، فسأكون الى جوار المنبر في الصف الأول .. » وتركهم وانصرف ..

١٨

وعاد سليمان الحلاق هو الآخر الى بيته ، استقبله اهله بحرارة بالغة ، لم يعتب عليه ابوه ، ولم تلمه زوجه ، بل فتحت ذراعيها لاستقباله ، اليهود في الحارة يدركون انه فتح الباب للفضيحة ، وشهد ضد اخوانه ، ولم يستطع احد ان يسد الثغرة التي فتحها بيديه : ولم يكترث لذلك كثيراً ، فهو وحده يعلم الظروف القاسية التي رزح تحت اعبائها ، وليس حريضاً على ان يلتمس المعاذير لنفسه او يشرح وجهة نظره لليهود ، ولا يفكر مطلقاً في ان يدافع عن انهياره ، سيان عنده ان يقول الناس لقد ضعف سليمان وخان الأمانة ، او يقولوا كان الله في عونه، لقد تحمل اقصى ما يستطيع،ولطاقة

الاحتمال لدى الانسان حدود .. فليقولو ما شاءوا ، لقد أراد ان يتخلص من هذه الورطة ، وخرج الى الوجود من جديد ، الحياة عند سليمان اثمن واعظم من المبادىء .. اروع شيء ان يعيش الانسان ، اما الموت والسجن فكلاهما امر رهيب ، من الصعب ان يطيقه بشر .

قالت له زوجه : « فيم تفكر يا سليمان .؟؟ »

قال بوضوح لاكذب فيـه ولا زيف : « افكر في نفسي وبيتي .. »

قالت ببساطة : « هذا عين العقل .. »

اردف سليمان شارداً « وتعلمت شيئاً لا انساه مطلقاً .. »

— « ماذا ..؟؟ »

— « الأمن هو اعظم ما في الحياة .. »

— « أجل ... »

— « ولا يهم بعد ذلك يا زوجتي ان يكون الانسان غنياً او فقيراً ، الأمن كنز ثمين وسعادة كبرى ... »

قالت « او تعتقد ان اليهود سيتركونك في حالك ..؟؟ »

قال في ثقة « لن يجرؤا على ان يفعلوا شيئاً ، لقد اعترفنا جميعاً .. ولا يجهل احد الظروف التي ارغمتنا على اظهار الحقيقة .. »

قالت وهي ترمقه في تساؤل : « ظننوا انك على وشك ان تعتنق الاسلام كما فعل ابو العافية » .

رد بهدوء : « لم افكر في ذلك بعد ان وعدوني بالعفو .. كنت اريد العفو بأي ثمن وقد حصلت عليه . »

قالت : « معنى ذلك انك .. » قاطعها قائلاً :

— « اجل لو لم يكن هنـاك من وسيلة لأنقذ نفسي سوى الإسلام لفعلت ، لكن الظروف لم تلجئني إلى ذلـك لحسن الحظ.. قلت لك إن حياتي واهل بيتي اهم لدي من كل مبادىء الدنيا .. »

اقتربت منه ثم التصقت بـه وهمست في اذنه : « إني لجد سعيدة بأنك لا تفكر إلا في نفسك وأهل بيتك .. نظر اليها في شوق ولهفة ثم توجه إلى أبنائه وقبلهم في حرارة وقال :

— « اذهبوا إلى جدكم في الحجرة الثانية ... »

واردفت زوجه « هيا يا أحبابي .. أبوكم متعب ويريد أن ينام .. » عندما انصرف الأبناء قال سليمان في توتر : « ها قد عادت الأيام يا زوجتي.. وكان يجب ان تعود.. وبأي ثمن.. » ثم ضمها إلى صدره في شوق جائع ...

وفي اليوم التـالي ذهب إلى حانوتـه ، في الطريق لاحقته

العيون والتعليقات الهامسة ، بعضهم اقترب منـه وصافحه ، وآخرون بصقوا على الأرض بالقرب منـه ، تناثرت من حوله كلمات بذيئة ، تجاهل السخافات والتعليقات الخارجة ، ثم فتح باب الحانوت ، أزال الغبار عن المقـاعد والآلات والنوافذ ، وجلس ينتظر ، وبقي فترة طويلة ، دون ان يأتي اليه زبون ليحلق شعره ، ليكن فالأمر يحتـاج إلى وقت ، وكثير من الناس لم يعلموا بنبـأ خروجه ، وكثير من اليهود سيقاطعونه بالتأكيد ، هذه المقاطعة لن يعبأ بهـا ، والزمن كفيل بمحو الكثير من سوء الظن .. وليس عليـه سوى الصبر .. وقبيل الظهر فوجىء سليمان بأعداد كبيرة من الناس تهل عليـه .. ابتسم خفية .. ثم بدأ يمـارس عمله وسط الصمت المتوتر .. وبعد فترة لا يدري سليمان أطالت أم قصرت،وكان يحلق شعر طفل صغير، قال الطفل: « حاذر .. إياك ان تذبحني كما ذبحت البادري .. إنني أخاف منك خوفاً شديداً .. »

وضج جميع الحاضرين بالضحك « انا لم اذبحه يا بني ... »

وكان هذا الحديث العابر بداية لنقاش طويـل ، انهالت الأسئلة والاستفسارات على سليمان الحلاق ،كان حذراً ، حاول ان يهرب من الاجابة ، لم يشف شغفهم للحديث وكان يقول :

ـ « انا رجل حلاق مسكين لا دخل لي بشيء .. »

ـ « كيف مات يوسف لينيادو يا سليمان ؟؟ »

هنا استطاع ان يجيب : « كان مريضاً فمات .. لا دخل لأحد في موته .. لا تصدقوا ما يشاع ، انني أقول الحقيقة.. لم يتعرض لأي اذى .. »

قال زبون يجلس قرب الباب :

- « وهناك شائعة تقول ان يوسف هراري هو الآخر مات .. »

رد سليمان : « تركته مريضاً يصعد أنفاسه في صعوبة .. ان الشيخوخة والمرض لا يمكن ان يدعاه يعمر طويلاً .. انتم تعلمون انه مريض منذ زمن بعيد .. وانا لا أكذّب شائعة موته لقد تركته يحتضر .. »

واقترب أحد الزبائن من سليمان وهمس : « أنت نذل... » نظر اليه سليمان في رقة ، لم يثر أو يحتد ، وانما قال :

- « سامحك الله .. »

- « كان الاوفق ان تجلس في البيوت مع النساء .... »

- « انا لا انقم عليك ولكني أرثي لحالك .. ولن تفهم لغتي لسبب بسيط ، هو انك لم تخض التجربة ،ثم التفت سليمان الى الحاضرين وقال :

- « من عليه الدور في الحلاقة يتقدم .. »

وواصل سليمان عمله دون اكتراث ، لكنه لاحظ ان كثيراً من الأولاد والنسوة والفتيات والفتيان كانوا يمرون في الشارع

أمام حانوته ، ويسترقون النظر اليه ، وكان سليمان يرى من خلف البراقع فضولاً كبيراً ، وحاول ألا يهتم بذلك . وفي المساء دُق باب بيت سليمان ، وقال لزوجه في إصرار :

ـ « لا تفتحي الباب لأحد .. »

ـ « لعله أحد الاصدقاء .. »

ـ « ليس لي اصدقاء ، ليذهبوا الى الجحيم .. »

ـ « لعله مريض يريد علاجاً منك .. »

ـ « لن أمارس مهنة الطب بعد اليوم ، تكفيني الحلاقة ، ولن أذهب لبيت أحد ، ولن أغادر بيتي في المساء لأي سبب كان .. »

لكن الدق مستمر على الباب ، قالت زوجه :

ـ « لسوف أذهب لأرى من الطارق دون أن افتح الباب .. »

عندما ذهبت الى الباب هتفت بصوت خفيض : « من؟؟» وجاءها صوت في الخارج : « افتحي .. انا مراد الفتال .. »

« افتحي .. انني اعرف انه هنا .. أريده لأمر هام .. »

ترددت برهة ، لكن سليمان أشار اليها بأن تفتح ، ودخل مراد ومعه استير ، قال مراد :

ـ « حكموا على الباقين بالإعدام .. »

قال سليمان ببرود : « هذا لا يهمني في كثير أو قليل .. »

– « وأنا ساغادر دمشق .. أنا واستير .. »

قال سليمان هذه المرة دون اكتراث: «رافقتك السلامة..»

– « وأريد منك قرضاً بسيطاً .. »

ضحك سليمان في سخرية : « خاوي الوفاض يا حبيبي ..»

– « قلت لي في السجن ان لديك بعض المال المدخر .. » هتف في جفاف ..

– « لا اريد ان أراك ثانية لقد انتهى كل ما بيننا .. »

تساقط العرق على جبين استير ، وارتبك مراد ، ثم وقفا، متجهين صوب الباب وبعد ان أغلق سليمان الباب ضحك في شماته وقال :

– « لم أعد أكترث لشيء ، ولم أعـد أعترف بشيء اسمه الصداقة او الاخوة .. إنني لا أرى حولي إلا وحوشاً في غابة هكذا الناس .. إن لم تكن ذئباً أكلتك الذئاب.. هلمي إلي يا زوجتي الحبيبة .. لقد أحرقني الخوف والحرمان وأريد أن أعيش .. أعيش لنفسي .. وليخرب الكون كله وليذهـب جميع حاخامات العـالم الى الجحيم .. ولتخرب أورشليم ألف مرة .. سيان عندي إذا عاد المسيح الحقيقي أو لم يعد ... »

القي القبض على أغلب المتهمين في قضية مقتل الخـادم ابراهيم عمار ، وتم فيها التحقيق على وجه دقيق، وصدر الحكم بإعدام المتهمين الذين ثبتت إدانتهم مثلما حدث في قضية مقتل الأب توما،وارتاح جمهور الناس لهذه الأحكام الرادعة العادلة..

وفي الرابع من صفر عام ١٢٥٦ هـ الموافق ٢٢ ابريل سنة ١٨٤٠ أرسل جنابقنصل فرنسا إلىالوالي شريف باشا خطاباً هذا نصه :

أخبرت دولتكم بإفادتي نمرة ٢٢ بأنه جاري دسائس خفية بخصوص اليهود المحبوسين، وقد علمت ان اثنين يهوديين أحدهما يدعى (الياهونحماد) من حلب والآخر « بتشوتو » الذي ورد اسمه في التحقيقات من قبل ، وعدا أحد الرجال المشتركين في التحقيق بأن يعطياه مبلغاً كبيراً من المال ، لكي يقول أقوالاً مخالفة لما جاء في اقوال المتهمين حتى الآن، وقد وعدوه ببعض آلاف الريالات ، وحماية قنصلية ، واقتضى تحريره .. »

الكونت دي راتي مانتون – قونسلوس دولة فرانسا بالشام

وردت مكاتبة أخرى من جنـاب القنصل الى الباشا تحت رقم ٢٢ مكرر يقول فيها :

« دولتلو افندم ...

من الواجب ان اضيف على كل ما ذكرته بتحريري السابق نمرة ٢٢ المتعلق بمداخلات اليهود ودسائسهم ، ان احدهم طلب من أحد المنتمين لدولة أخرى غير الدولة الفرنساوية أن يجتمعا مع « شبلي افندي »(موظف في القنصلية الفرنسية) ليتداولوا في قضية مهمة ، فصرحت بهذا الاجتماع حباً في الوصول لمعرفة السبب ، فقدم اليهودي هذه الطلبات الأربعة :

أولاً : التوقف عن ترجمة الكتب العبرية لأن ذلك مخل بحقوق الأمة اليهودية .. »

ثانياً : ألا يصير وضع هذه الترجمة أو شيء آخر يختص باليهود في دوسيه القضية بل يلزم اعدام او إتلاف كل ما ترجمه موسى ابو العافية (محمد افندي ابو العافية) .

ثالثاً : ان يصير التوسط لديّ لكي استحصل من دولتكم على الافراج عن احد المتهمين (المعلم روفائيل فارحي) وهو متهم في قضية مقتل الخادم ...

رابعاً : أن تجري الوسائط لابدال جزاء الاعدام المحكوم به على المتهمين بأي عقوبة اخرى .. وبعد انتهاء ما تقدم ذكره يصير دفع خمسمائة الف قرش (خمسة آلاف دينار عثماني ذهباً) منها مائة وخمسون الف وقت التصريح بالرضا ، والباقي عند نهاية القضية ، وان موظفنا شبلي مفوض في توزيع هذا المبلغ حسبما يراه موافقاً . . . .

. . . .

ولدي كيس به بضعة آلاف من القروش أحضره أحـــد اليهود ، وقد حفظته بصفة أمانة لحين إجراء التحقيق .. الخ »

امضاء

الكونت دي راتي مانتون — قونسلوس فرانسا بالشام

وبناء على هذه الافادات بدأ تحقيق آخر في قضية الرشوة التي أخطر عنها القنصل الفرنسي وكانت الادانة واضحة جلية.

٢٠

كانت كاميليا على علم تام بما يجري من محاولات لانقـــاذ المتهمين المحكوم عليهم بالاعدام ، وكانت على اتصال بكبار اليهود الذين تزعموا هـــذه العملية ، وخاصة بتشوتو ، اليهودي الذي اتهم في قضية الخادم ابراهيم عمار ، وشهد عليه الشهود ، والذي ظل يتمتع بقسط كبير من الحرية لأنـــه تحت حماية دولة النمسا .. ولم يفارق « كاميليا » قلقها طوال هذه المدة .. لأنها تخاف المفاجآت ، مـــا يحدث لو فوجئت ذات يوم بجثة زوجها تسلم اليها كما حدث ليوسف هراري ، ويوسف لينيادو ؟؟ كانت تغمض عينيها عندما ترد هذه الخواطر على

ذهنها ، وتحاول جاهدة ان تبعدها عنها .. انها بالتأكيد اليوم لا تريد لزوجها ان ينتهي تلك النهاية المحزنة ، هل هي تحبه؟؟ سؤال صعب الاجابة ، أهي تكرهه ؟؟ مثل هذه الاسئلة لم تكن تستطيع في الحقيقة أن تجيب عليها بكلمة واحدة حاسمة ، لا تستطيع أن تقول « لا » أو تقول « نعم » خالصة من الظلال او الغموض .. بالأمس كانت تخونه ، وكانت تدرك ان هذه الخيانة لها معنى سيء يرفضه المجتمع ، ويزعج زوجها لو علم بها ، كانت مؤمنة أنها تفعل فعلاً خاطئاً لكنها — مع ذلك — كانت تفعله ، وكانت تفترض ان زوجها رافض له ، بل قد يسفك دمها لو علم به، وتتصور زوجها غاضب الوجه، مشمئز النظرات ، يريد ان ينشب فيها أظافره وأنيابه ، كذئب شرس ، هذه الصورة المتخيلة لزوجها كانت تثير الكراهية له في نفسها ، أما زوجها الذي تعايشه وتخاطبه ، ويرق لها ويبتسم عند رؤيتها ، ويحاول مراضاتها بشتى الطرق، فهو نموذج آخر غير النموذج المتخيل الرهيب ، لم تكن تحمل لتلك الشخصية الباسمة الرقيقة كراهيةً ولا حقداً ، كان زوجها اذن شخصيتين لا شخصية واحدة ، وكانت تكره واحدة منها وتحترم الاخرى ، وكانت تهرب من هذا التمزق النفسي العنيف الى الخمر والى احضان الخادم ، ويوماً كان لها فلسفة غريبة مفادها انها تحب زوجها لكنه لا يؤدي معها وظيفة الرجل ، وكانت فلسفتها الغريبة تزعم لها أن لها الحق في ان تسد الفراغ القاتل في حياتها،أو النقص القائم في زوجها

بأية طريقة ، ولو مع خادم .. وما ان جاءت الكارثة ، وأُخذ زوجها الى السجن حتى شعرت بالحرية .. ذاب خوفها ولم تعد تخاف رجلهـا الشرعي .. فانطلقت تعربد حتى أفاقت على الحقيقة المرة ، حينما امسكت بها الخادمة « استير » وهي في الوضع الشائن ، بعدهـا أفاقت الى نفسها ، أخذت الصورة الكريهة لزوجها تذوي مع الأيام ، وانصرفت الى تتبع المأساة، وبعد فترة لا تدري أطالت أم قصرت وجدت نفسها تقدس ذكرى زوجها وأياديه البيضاء عليها ، وتعودت على الصوم .. ربما عانت الكثير في أيام صومها الأولى لكنها الآن تستطيع أن تصمد .. ومن آن لآخر تراودها خيالات اللذة الآثمـة ، لكنها سرعان ما تثوب الى رشدها ، وتستمر في صومها ، صوم الجسد عن المحرمات .. هي لا تنكر ان لها مع زوجها مأساة من نوع خفي يجهله الناس ، وتعرفه هي تمام المعرفة ، لكن علاج الأمر لا يكون بالجنوح الى الرذيلة ، أليس بإمكانها أن تنفصل عنه، وتبحث لها عن زوج آخر؟ إن هذا التصرف برغم صعوبته وآثاره المؤلمة قد يكون أليق بها كإنسانة تؤمن بالقيم المتوارثة ، والأخلاق المتعارف عليها ، وبرغم كل ذلك فهي الآن لا تنظر إلا الى الرجل الذي يضوي وينتحب خلف القضبان ، تريده ان يحيـا أولاً وان يعود اليها ولتترك ما بقي الى الله ..

انزعجت « كاميليا » حينما علمت ان الوساطـة قد باءت

بالفشل ، وان التحقيق قد بوشر في القضية الجديدة، قضية الرشوة التي ابلغ عنها قنصل فرنسا ، وكانت تعلم كما يعلم الناس أن شريف باشا والي دمشق صعب المراس ، وأنه قد يصدر أمره في أي وقت من الأوقات كي ينفذ عساكره الحكم الصادر ضد اليهود ، ولذا كانت تجري هنا وهناك وتلتقي ببعض رجالات الدول الأجنبية وتوعز اليهم انه إذا لم تكن هناك وسيلة لإنقاذهم فسيضطر بيت هراري كله نساءً ورجالاً إلى اعتناق الإسلام ، حتى يفلت الرجال من حبل المشنقة ، وفي ذلك عار كبير لليهود واليهودية ، ولم يسأل اليهود وسعاً في البحث عن وسيلة ..

وكاد الحكم أن ينفذ لولا ان قنصل فرنسا رأى ان يُرفع الحكم للتصديق عليه من ابراهيم باشا بن محمد علي ، وفي هذه الأثناء جدت امور مثيرة ..

٢١

تأزم الموقف وخاصة في اوروبا ، إذ أقام اليهود الدنيا وأقعدوها ، بتحريض من جماعة الاتحاد الإسرائيلي في اوروبا، وكان قناصل الدول يرسلون بتقارير وافية إلى عواصم دولهم ، عن هذه القضية ، ورأى كبار اليهود في اوروبا ان يحاولوا

بشتى الطرق وقـف تنفيذ الحكم لفترة يستطيعون خلالهـا ان يجدوا حلاً .. ولن يستطيعوا تعويق القضيـة إلا بدفع مبلغ كبير من المال لمحمد علي شخصياً. والاستفادة من بعض الضغوط السياسية العالمية ، وخاصة ان محمد علي باشا حاكم مصر والشام في تلك الفترة ، يقاوم تياراً جارفـاً من العداء التركي وبعض الدول الأوروبية ،وكان اليهود الأوروبيون ينظرون إلى القضية على انها امر يمس الديانـة ومستقبلها ، ويمس اليهود ككل في أنحـاء العالم الاسلامي والمسيحي ، وليس الأمر مجرد عشرة أفراد حـكم عليهم بالإعدام ، في قضيتي البادري وخادمـه . واجريت اتصالات سريعة وعلى أعلى المستويات مع والي مصر محمد علي باشا وقدم اليـه اثنان من كبار اليهـود الأوروبيين ممثلين لجمعية الاتحاد الاسرائيلي هما « كراميو » و « مونتيفيوري » الفرنسيان . استقبلهما محمد علي بالترحاب البالغ بعد ان تسلم الثمن .. قال « كراميو » :

— « نحن نلتمس منكم إعادة النظر في الدعوى .. »

ابتسم محمد علي في دهاء وقال : « أفهم ما ترميان اليه .. تريدان حل الأزمة بطريقة قانونيه حتى لا يثور أبناء الشعب ضدي .. تقصدان محـاكمة جديدة .. ثم ينكر المتهمـون الاعترافات السابقة .. ثم يصدر الأمر بالبراءة .. »

قال « مونتيفيوري » اليهودي الداهية : « هو ذاك .. »

هز محمد علي رأسه قائلاً :

– « ليس لدي وقت لهذا كله ، ثم إني لا أخاف أحداً .. الشعب في قبضة يدي، ولا يستطيع أحد ان يعترض على قرار اتخذه .. إن لي رأيي الخاص الذي لا أخاف ان اواجه الناس به .. »

وابتلع جرعة من القهوة التركية وقال :

– « سأفعل معكما أحسن من ذلك، هو أني سأخلي سبيل المحبوسين وأأمر بإرجاع الهاربين إلى اوطانهم ، وأظن ان ذلك أفضل من إعادة النظر في القضية ، لأن إعادة النظر مما يتسبب عنه استمرار الضغائن بين المسيحيين واليهود ، وهذا أمر لا أوده . وسأخبر القناصل بإرادتي ، وأرسل أوامري الليلة إلى شريف باشا .. إنني أحب اليهود لأنهم شعب مطيع يحب الشغل ، وإني سأظهر لكم ما يفيد ميلي اليهم بكل ممنونيتهم .. » (١)

ثم سلمها « فرمان » العفو وذكر فيه هذه الألفاظ لشريف باشا :

« اعف عن المسجونين »

خرج المندوبان وفي يديهما صورة من فرمان العفو ، وتوقف « كراميو » لحظة وقال :

---

(١) هكذا في الاصل .

ـ « هذا فرمان خطير يا مونتيفيوري » .

ـ « لقد حققنا نصراً عظيماً ، بثمن بخس .. »

ـ « انت واهم .. لقد سقطنا سقطة كبرى .. »

ـ « ماذا تعني يا كراميو .. »

قال كراميو ويده ترتجف بالفرمان :

ـ « إن كلمة العفو معناها انهم أُدينوا ، وفي ذلك فضيحة عالمية وخطر كبير على ديننا » .

ـ « هو صحيح ، لكن ماذا نفعل أكثر من ذلك ؟؟ »

ورأى الرجلان ان يعودا مرة ثانية الى الوالي محمد علي باشا الذي استقبلهما بالترحاب المعهود .

وقال كراميو في أدب :« لقد أردنا ان نبلغ الباشا المعظم اننا قررنا التبرع لحكومته الرشيدة بمبلغ يفوق المبلغ السابق» .

ابتسم محمد علي ابتسامة تاجر قديم كان يبيع الدخان في « قولة » وقال وهو يعبث بلحيته الطويلة : « لا شك انكم تريدون شيئاً آخر غير العفو »

أردف مونتفيوري هذه المرة:« سنضع المزيد من امكانياتنا الى جانبك في حربك مع أعدائك ، سواء من المال او السلاح او التأييد السياسي ، وسيكون أبناء ملتنا في مصر والشام خداماً مخلصين لك .. بل وفي اوروبا أيضاً ... »

انتشى محمد علي من الكلمات الحلوة المفرحة وقال :

– « لا اريد مساومة أكثر..أوجزوا وأفصحوا .. عما تريدون .. »

– « العفو أطال الله عمرك معناه أنهم أذنبوا وثبتت الجريمة ضدهم ، ولسوف يعانون من جراء ذلك بعد العفو عنهم .. »

ضحك محمد علي ضحكة من اعماقه .. ثم قال :

– » ماذا تظنون اذن ؟؟ انني اثق في شريف باشا وفي قناصل الدول الذين أشرفوا على كل مراحل التحقيق .. »

طأطأ الرجلان رأسيهما بينما همس « كراميو » في شيء من الجرأة :

– « التشكيك في الجريمة من مصلحة الجميع .. »

هز محمد علي رأسه عنوان الموافقة ، وأراد ان يُنهي الامر بسرعة ، وتمتم :

« ان القضية قد اتسعت وشغلت الأذهان ، ويجب أن نبتر الاهتمام بها نهائياً .. »

ثم أمر بكتابة «فرمان» آخر تحققت فيه رغبة اليهوديين الكبيرين ..

« الى شريف باشا والينا في دمشق ...

إنــه من التقرير المرفوع الينا من الخواجات « مويز مونتيفيوري » و « كراميو » اللذين أتيا لطرفنا مرسلين من

قبل عموم الأوروبيين التابعين لشريعة موسى ، اتضح لنا انهم يرغبون في الحرية والامان للذين صار سجنهم من اليهـود ، وللذين ولوا الأدبار هرباً من تهمة حادثة الأب توما ، الراهب الذي اختفى في دمشق في شهر ذي الحجة سنة ١٢٥٥ للهجرة مع خادمه ابراهيم ..

وبما أنه بالنظر لعدد هذا الشعب الوفير ، لا يوافق رفض طلبها ، فنحن نأمر بالافراج عن المسجونين وبالأمان للهاربين من القصاص عند رجوعهـم ، ويترك أصحاب الصنائع في أشغالهم ، والتجـار في تجارتهم ، بحيث ان كل انسان يشتغل في حرفته الاعتيادية ، وعليكم ان تتخذوا كل الطرق المؤدية لعدم تعدي أحد عليهم أينما كانوا ، وليتركوا وشأنهم من كل الوجوه ، هذه ارادتنا « بصمة ختم محمد علي »

صورة طبق الاصل ....

عندما قرأ شريف باشا والي دمشق ذلك«الفرمان»الغريب لهثت أنفاسه ، ودارت به الأرض، اشتد به الضيق ، وأقعده الخطب الجسيم عن النهوض،ورنت في رأسه كلمة «العدالة».. لم يذبح البادري وخادمه وحدهما ، وانما قُطّع جسد العدالة إرباً إربـاً ، سبعة شهور من التحري والتدقيق والتحقيق .. اعترافات كاملة .. شهادات ثابتة .. حتى البلاطـة المنفسخة التي حطمت عليهـا جمجمة البادري .. وقطع طربوشه .. وعظامه.. والسكين.. ويد الهاون.. تعاليم التلمود الصريحة..

أقوال الحاخامت .. التفاصيل الدقيقة الصغيرة لكل شيء .. يا ضيعة العدالـة .. قناصل الدول الذين شهدوا كل شيء .. وتحققوا من كل شيء .. قضية الرشوة الأخيرة .. العدالة .. العدالة .. ها ها ها

وأخـذ شريف باشا يضحك في هستيرية ثم صاح فحضر العسكر ، فقال لهم بصوت عال أجش :

ـ «أفرجوا عن جميع اليهود المسجونين..تلك ارادة الوالي باشا الاعظم ، وليحيى للعدل .. »

كان ذلك في يوم ٥ سبتمبر (ايلول) عام ١٨٤٠ ميلادية.

٢٢
الخاتمـــة

ليالي دمشق نومها عذاب ، ونهـار دمشق عيون وجلة ، ووجوه مكفهرة ، والأحاديث هامسة مشحونة بالثورة، وعاد الناي الحزين يرتل أنغامـه على شاطىء « بردى » ومواويل الحفاة والعراة هي سجل التاريخ الصـادق ، مواويل ينساب منهـا الحنين ، وتنسكب الدموع .. قـال شيخ ضرير يؤم المصلين بعد ان أدى فريضة الفجر :

ـ « كل من عليهـا فان ، ويبقى وجـه ربك ذو الجلال والإكرام . تذكروا يهود بني قريظة . كانوا يا أبنائي حلفـاء الرسول ، اتفقوا معـه على ان يردوا كل مهاجم او معتد على يثرب ، وان يمدوا الرسول بالمؤن والرجـال ، عند الضرورة وجـاء « الأحزاب » من كل مكان لحرب الرسول ، أحاطوا بالمدينة ، كان الرسول قد حفر هو وأصحابه خندقاً كبيراً فلم تستطع الأحزاب ان تعبره .. ولم يبـق إلا المؤخرة ، ولكن فيها حلفاء النبي من اليهود .. وغدر اليهود.. نكثوا بالعهد.. ظنوا ان انحيـازهم لقريش والأحـزاب سيقضي على الإسلام والمسلمين إلى الأبـد ، ولكن الله سلـّم ، وصمـد المسلمون ، وعصفت الريح وتبدد شمل الأعداء ، واستدار الرسول لينزل بالغادرين العقاب ، كان عقاباً صارماً لا ينسى .. »

ثم تنهد الشيخ الضرير وقـال : « عن رب العزة يقـول الرسول : يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا .. والظلم ايها الاخوة ظلمات يوم القيامة .. فلتقرؤوا الفاتحة على أن يقصم الله ظهر الظالمين .. »

وفهـم الحاضرون مـا يريد الشيخ ان يقوله ، واعتصموا بالصمت ، والصمت بركان حبيس لا يدري احد متى ينفجر ، فيدمر ويسحق الأخضر واليابس .. وصحـا الرهبان في ذات اليوم في دير « تيرسانت » ، وتراصوا للصلاة ، كانت الدموع ممتزجة بالتراتيل الحزينة ، ومن آن لآخر يرفع المرتل صوتـه

باسم « يسوع » ، وقـال أحد الحاضرين وهو يسدد نظراته إلى صورة رائعة للمسيح : « ماذا أرى؟ إنها .. ليست صورة المسيح .. إني أرى وجه البادري توما ..» وربت أحد الآباء على رأسه في رقـة : « لا تحزن يا بني .. زعموا ان البادري هاجر..نعم هاجر إلى الله..إلى ملكوت السماوات.. وصعدت روحه الطاهرة على صليب قاس صنعه يهود اليوم. دائماً يعبثون بكرامـة الإنسان ، ويتلذذون بتعذيـب الأبرياء ، الوحش يا أبنائي يلتهم الفريسة دون حقد أو تشف .. أما اليهود فقد كانوا يغنون ويرقصون ويضحكون، كانت حياة البادري توما عذراء طاهرة شفافـة ، وصعدت روحه إلى أبينـا الذي في السماوات .. مضمّخة بالعطر والعبير والأهازيج القدسية .. » ثم تصاعدت تراتيل الراهبات الشجية توشي الصمت والظلام بنغم حزين .

وقالت زوجة قنصل من قناصل الدول الكبرى :

ـ « إن ما حدث يعتبر مهزلة كبرى .. »

قال زوجها القنصل ساخراً :

ـ « لا شك أنها قصة مسلية ومثيرة ، وللسياسة أحكام يازوجتي العزيزة ، وميكيافيللي يقول في كتابه «الامير»:الغاية تبرر الوسيلة .. »

وارتمى رجل سكران على قارعة الطريق وأخذ يهذي :

ـ « أنا بطل حرب « المورة » .. أنا فارس « عكا » .. أكلت مع ابراهيم باشا على مائدة واحدة .. لكني والله ما قتلت البادري ولا أعلم عن الحادث شيئاً .. » وانفجر باكياً فجاء عسكري الدرك واخذ يجره الى حيث لا يعلم احد ..

امسكت امرأة صغيرة السن بطفلها ثم قرصته من خده وقالت :

ـ «إذا لم تسمع كلامي أرسلتك الى حارة اليهود ليذبحوك..»

وقال يهودي نجار لزميله وهو يدق المسامير في عصبية :

ـ « انهم لا يعرفون من نحن ، لقد انتصرنا وخرجنا برغم أنف شريف باشا .. »

ـ « آه .. وغداً تنفخ البوق في اريحا .. »

ـ « ونعمّر أورشليم الخراب .. ونرشق راياتنا على أرض « الجول » الجرداء .. نحن كل شيء .. »

ومالت راقصة يهودية على ثري من أثرياء الشام في إحدى الحانات ، وهمست في دلال :

ـ « أتخاف مني ؟ »

رد عليها قائلاً :

ـ « يا سعادتي وهنائي لو مت بين يديك ... »

وبالقرب من المسجد الاموي، وقف بائع الكتب والمخطوطات القديمة يتحدث مع بعض الشباب :

« انظروا ... هذه كتب قديمة عن ذبائح اليهود ، وهذه مخطوطات ألّفها علماؤنا الاقدمون عن فظائعهم وتاريخهم ، ولكن للأسف انتم لا تقرؤون ... »

وقال رجل يقرأ القرآن على أحد المقابر لزميله :

ـ « أتعتقد ان البادري سيدخل الجنة ..؟ »

ـ « وهل آمن بالله ورسوله ..؟؟ »

أما الصيدلي سانتي صديق الاب توما فقد قال والدموع تترقرق في عينيه :

ـ « القصة قديمة .. الصراع بين الذهب والمبادىء .. الانبياء وأتباعهم هم الذين استطاعوا بقوة المبادىء ان ينتصروا على إغراء الذهب ، وما أكثر المعارك التي تكون فيها الغلبة للذهب .. للأسف الشديد !! توما ضحية العصر المنهار الذي يحكمه الذهب لا القانون .. توما الذى انتصر على سلطان الذهب القاهر ، استطاع الذهب في النهاية أن يهدر دمه ، ويضيع القصاص ، ويسحق العدالة ، ويلوي أعناق الحكام الكبار ... »

واحتشد عدد من رجال الشرع والقانون مسلمين ومسيحيين،

وقرروا ان يكتبوا عريضة لمحمد علي باشا ولشيخ الجامع الازهر يحتجون فيها على «الفرمان» ، غير ان « احد العقلاء» قال لهم :

ـ « لا تفعلوا شيئاً كهذا ، وإلا ألقيتم بأنفسكم في مشاكل لا يعلم إلا الله مداها .. »

وتألقت الأنوار في حارة اليهود ، وتناهت الى اسماع اهل دمشق الأغاني والموسيقى الهادرة ، والطبول العالية وامتلأت الحارة الشهيرة بالأعلام والرايات الملونة ، وبصورة كبيرة لمحمد علي باشا ، وعاد المتهمون إلى بيوتهم ، وسط التظاهرات الصاخبة ، وتلقت كاميليا زوجها وسط الزحام بالقبلات والعناق دون أن تشعر بأدنى حرج ، وابتسم داود لها في ود بالغ ..

اما سليمان الحلاق فقد بقي قابعاً في دكانه لا يعير الأمر اهتماماً، لكنه فكر في أن يبحث له عن مكان آخر يتخذ له فيه حانوتاً .. إنه يشعر بحصار من نوع ثقيل ، لا يلمسه بيديه وحواسه ولكنه يشعر به ككابوس نفسي مرهق .. ومحمد أفندي أبو العافية بعد ان غادر حارة اليهود إلى الأبد ، كان يُرى كل صباح متأبطاً بعض الكتب الدينية والمصاحف ، ومتجهاً إلى المسجد الأموي ، ولم يعلق على خروج اليهود إلا بعبارة موجزة ذات معنى :

ـ « ليس المهم ان يخرجوا من السجن او يبقوا فيه ، ولا

يهم ان يُعدموا أو تُكتب لهم الحيـاة .. إن أخطر سؤال يواجه الإنسان المخلص هو هـل يسير على صواب ام يخوض في أشواك الهلاك والضلال؟؟» وما ان هدأت الأحوال واستقرت الامور وكاد النلس ان ينصرفوا عن حادثة البادري ومخلّفاتها حتى قدمت كاميليا الى زوجها وقالت في هدوء تحسد عليه :

— « آن أن أخبرك بالحقيقة »

التفت اليها في دهشة وقال :

— « ماذا ؟؟ »

— « لقد قررت الرحيل »

— « كيف ؟؟ »

— « لقد أديت واجبي ويجب ان تنتهي حياتنا الزوجية »

— « إنني لا أصدق مـا أسمع . كنت نعم الزوجـة في محنتي .. »

— « اما وقد انتهت المحنة يا داود .. فواجب ان تطلق سراحي » .

— « كاميليـا حبيبتي .. انا ومالي ومـا املك تحت تصرفك .. »

— « قالت وهي تبتسم في مرارة : « حان الفراق .. ولا فائدة ... »

أحنى رأسه في ذلة .. فهم كل شيء .. اقترب منها في محاولة اخيرة ، واختطف يدها وقبلها ، ثم أقعى كالكلب على قدميها ، فرجعت الى الوراء بحركة سريعة : « لن أرجع في قراري .. »

— « افعلي ما شئت يا حبيبتي ، لك الحرية في ان تستكملي سعادتك بالطريقة التي ترينها .. لكن لا تتركيني .. » عادت تبتسم في مرارة . لشد ما تحتقره الآن ، تمالكت أعصابها وقالت في قوة وإصرار :

— « أنا خارجة ولن اعود ... وأي كلام بهذا الخصوص لا فائدة منه .. »

رآها تسبغ الخمار على وجهها ، وتحكم العباءة الرقيقة على جسدها الفاتن ، وتخطو صوب الباب في إصرار .. فشعر بقسوة الحرمان ، ومرارة العجز ... فهتف :

— « والطفلان ؟؟ »

دمعت عيناها ، وتمتمت :

— « انا في انتظارهما دائماً.. ولن اتخلى عنهما أو انساهما.. »

وأدرك للمرة الثانية في حياته ، وبصورة اعمق وأفظع ..

كيف يقاسي المطرود من النعيم ، وشعر بكراهية قاتمة للحياة بكل ما فيها ، ككراهيته اليوم للفطير المقدس .. بل إنه اصبح يكره كلمة « مقدس » نفسها ... وحاول ان ينهض فلم يستطع وترك لدموعه العنان ..

تذييـــل

قصة بالوثائق

لعل من العسير بعض الشيء ، أن يكتب الأديب قصـــة فنية مدعمة بالوثائق ، ان الوثائق غالباً ما تأتي جافة مباشرة ولا تهتم إلا بالحقـــائق المجردة ، والصيغ التقليدية والعبارات الركيكة والمتداولة ، والوثائق تبرز الحقائق الأوليـــة ، ولا تكترث بالأبعاد النفسية للشخصيات ، وقـد تغيب في ثناياها بعض الدوافع الهامة والاسس الخطيرة .. والفنان الذي يريد كتابةقصة مدعمة بالوثائق لا يستطيـع أن يضعالوثائق متجاورة ويتقيد بحرفيـة التسلسل ، وإلا كانت كتابتـــه مجرد بحث تاريخي ، أو دراسة قانونية محكمة ، وهذا وضع قد يتعارض مع مستلزمات الفن القصصي ، ويخرج بــه عن دائرة الإبداع المطلوب ، والإجادة المرجوة، ومن ثم فلا طريق للفنان سوى ان يضع قاعدة عريضة وأساساً متيناً ، يقيم عليها بناءه الفني، ألا وهو الحقائق الكلية ، والاستعانة ببعض الوقائع المبتكرة.

ولكي أزيد الأمر توضيحاً أقول: إن الحقائق الكلية ، أقصد بها الامور الثابتة ، التي أبرزها التحقيق ، وقررتهـا الوثائق دون شك ، اما الوقائع المبتكرة وهي هامة للغاية ، فأقصد بهـا محاولة رسم الخلفية الاجتماعيـة والعاطفية والنفسية للحدث . إن زوجة داود هراري « كاميليا » مثلاً لم يقصد بهـا سوى إبراز التنـاقض الحـاد ، والعفن الاجتماعي ، والاضطراب العاطفي، الذي تفرزه التعاليم الزائفة المستقاة من شروح التلمود، وتعززه القيم الفاسدة ، التي درج عليها المجتمع اليهودي ، بمـا يسيطر عليه من جشع وانانية ومادية مفرطـة .. كاميليا رمز حيوي متحرك وتجسيم لمأساة الضلال اليهودي القديم ، وصورة صادقة للعقد النفسية .. التى ينضح بهـا التاريخ الطويل لملة أصابها الزيف والشطط عبر العصور . وقس على ذلك مـا قد يرد من حوار موضوع، أو مواقف متخلية، لا تتنافى وطبيعة القضية المطروحة ، ولا تخرج عن اطـار الحدث المثير . وإذا كان النهر يشق طريقه من المنبع الى المصب بقوة ذاتية ، وفق قوانين أزلية ، فإن إرادة الإنسان الفنان كثيراً مـا تحفر له الفروع ، وتصنع منه الشرايين التي تزيد من فعاليـة النهر ، وترفع من قيمته وجدواه ، دون أن يطغي ذلك على الصورة التقليدية للنهر الكبير ، المتدفق دائماً من المنبع إلى المصب ..

وكان لزاماً من آن لآخر أن أثبت بعض النصوص بحذافيرها، دون أن يتعارض ذلك مع السياق الفني ، وهذه النصوص

أساسية وهامة،وتشكل جوهر قضية « الأب توما » ، وبعض النصوص لجأنا الى اختصارهـــا ، لتؤدي الغرض المطلوب دون إخلال بالحقيقة التاريخية أو الفنية . إن حقد الصهيونية على المسيحية قديم ، ومؤامراتها ضد الاسلام والمسلمين لا تخفى على أحد ، وليس وراء هذه القصة من هدف سوى أن تعيد للأذهان حلقة من سلسلة طويلة من العـــداء الصهيوني ، ضد الانسانية جمعاء ، لعل العالم المسيحي والعالم الاسلامي أيضاً يدركان خطر الموقف ، وما يحفل به المستقبل من كوارث يطويها الحقد الصهيوني في قلبه الأسود منذ قرون طويلة ، ولعل ذلك يكون ناقوساً يدق في عنف يوقظ النيام وسماسرة السياسة ، والمتلاعبين بالألفاظ ، وأدعيـــاء البطولة ، كي يعلموا ان الأمر جد خطير وان المعركة حاسمة ..

الا وان الكمال لله وحده، وذلك جهد المقل والله الموفق.

نجيب الكيلاني

مراجع الرواية

١ – وثائق التحقيق في قضية الأب توما .

٢ – كتاب ذبائح اليهود .

٣ – الكنز المرصود في قواعد التلمود .
تأليف : الدكتور روهلنج وشارل لوران
ترجمة : الدكتور يوسف حنا نصر الله

٤ – التلمود (تاريخه وتعاليمه) .
تأليف : ظفر الإسلام خان

يوم الجمعة الواقع في ٤ شباط

[illegible]

صورة الصفحة الاولى في محضر التحقيق

٥٠١ اليهود ومقتل البادري توما

اوائل محرم سنة ١٢٥٦

دفتر من الورق الصكوكي القديم طوله ٨٢ سنتيمترًا وعرضه ٢٤ . وهو لا يزال محفوظاً بين اوراق منصور تيان – احد كتاب شريف باشا – لدى ابنه بطرس في بيروت . وهو نسخة عن المحضر الرسمي الذي ارسل وقتئذٍ الى مصر لا الاصل نفسه وذلك بدليل العبارة الواردة في آخره «لغاية هذا توجهت الصوَر لمصر وللاعتاب السر عسكرية ولسليمان باشا» . ويرجع الفضل في اكتشاف «مسودة» هذا المحضر لحضرة الاب بولس قرألي كما ابان ذلك في المجلة البطريركية ج٦ ص ٥٩٥ . اطلب ايضاً كتاب المذكرات التاريخية لناشره الخوري قسطنطين الباشا ص ١٨٦–٢٠٢ وكتاب الجواب على اقتراح الاحباب للدكتور مخائيل مشاقه (خط نسخة جامعة بيروت الاميركية) ص ٢٧٣–٢٨٠ والمجلد الثاني من كتاب أشيل لوران المشار اليه سابقاً ص ٧–٣١٧ . راجع كذلك كلام الاب مندوفي Mondovi في كتابه Relazioné Istorica Contenente il Compendio della Vita del Padre Tomaso da Calangiano di Sardegna etc. (Marsiglia, 1850). اطلب ايضاً موجز المسيو دريو Jean Driault في كتابه L'Assassinat de P. Thomas et le Talmud (Paris. 1922) وكتاب حبيب فارس «صراخ البري في بوق الحرية» (طبع مصر سنة ١٨٩١)

جرنال فقد البادري توما الكبوجي وخادمه ابرهيم اماره المقتولين بحارة اليهود بمحروسة الشام وذلك يوم الاربعا مساة الواقع في ٢ ذي الحجة سنة ٢٥٥ يوم الجمعة الواقع في ٤ ذي الحجة سنة ٢٥٥ حضر الخواجا بودين في الديوان

(مصورة عن كتاب الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي – د. أسد رستم)

صدر من هذه السلسلة

١ ـ أحجار على رقعة الشطرنج
٢ ـ لورنس العرب على خطى هرتزل
٣ ـ التلمود : تاريخه وتعاليمه
٤ ـ التوراة : تاريخها وغاياتها
٥ ـ دم لفطير صهيون ، رواية
٦ ـ اليهود ، باللغات العربية والانكليزية والفرنسية
٧ ـ تاريخ فلسطين القديم
٨ ـ الحل العادل
٩ ـ من يحكم واشنطن وموسكو ؟
١٠ ـ حكومة العالم الخفية
١١ ـ فضح التلمود
١٢ ـ « يهود » اليوم ليسوا يهوداً